سلام الراسي

الأدب الشعبي ١

أدب الناس للناس



احاديث واحداث
قصص واخبار
طرائف وأمثال
جمعتها عن ألسنة الناس

لئلا تضيع!

نوفل

سلام الراسي

لئلا تضيع

أحاديث وأحداث
قصص وأخبار
طرائف وأمثال
جمعتها عن ألسنة الناس

الطبعة الخامسة

١٩٩٥

نوفل

بناية نوفل ـ شارع المعماري
تلفون (الحمراء): ٣٥٤٨٩٨
(سن الفيل): ٤٩٩٠٧٤
تلفاكس: ٣٥٤٣٩٤
ص.ب: ١١/٢١٦١ أو/ ١١٣/٥٤٢٢

بيروت ـ لبنان

الإهداء والمقدمة

أهدي كتابي هذا إلى أبطال قصصي
إلى إخواني الذين تناولتهم بأحاديثي
الأحياء منهم والأموات
شهود الأحداث التاريخية والقصص الشعبية الواقعية
التي جمعتها عن ألسنة الناس، في كتابي هذا:

لئلا تضيع

وقد عزّزت بعض الوقائع والأقوال بالقرائن والشواهد التاريخية وذيّلت بعض الصفحات بمقتطفات من أخبارنا المنسية إتماماً للفائدة، وعن حسن نيّة.

ولست أراني بحاجة إلى تقديم ما كتبته بمقدمة لأن موضوع الكتاب يدلّ على مضمونه.

سلام الراسي

القسم الأول

فتشت فلم أجد الذم إلا النظر في عقول الرجال

عمر بن عبد العزيز

«المِعزى عز لا تقطعوها من دياركم»

«أبو كايد» شخصية لا تُنسى، معّاز متقاعد، هكذا بدا لي أن أسميه: ـ «كايد صار شب ـ الله يخلي ولادك ـ واستلم العصا، ولحق المعزايات، وأخوك أبـو كايـد تفرّغ لمعـاشرة الأوادم».

قلت: «إن من يحمل عصا أبي كايد يجب أن يكـون «قدّها».

فقال: «فَتّح عينك، كايد قدها وزياده»، وأضاف: «على سيرة العصا كنت مرّةً يا شيخ بو علي»[1]... ويبدأ بسرد قصة عن العصا يدخل فيها كلمة «كلب» مثلاً، ثم يقول: «وعلى سيرة الكلب ـ أنت أكبر قدر ـ سأخبرك يا شيخ بو علي»...

وهكذا ينتقل أخونا أبو كايد من سيرة إلى سيـرة ولا ينتهي، وقد عللنا سبب كثرة كلامه إلى أنه يريد أن ينتقم من

(١) «بو علي» كنية المؤلف.

حاضره لماضيه الذي صرفه صامتاً في البراري مع قطعان الماعز.

وكان محور كلامه قصص المراجل والمخاطر وحديث الوحوش الكاسرة:

ـ «النمر تغيظه رؤية الشوارب المرتفعة، فإذا التقيت به يوماً نكّس شاربيك وقل: «السلام عليك يا بو فارس النمر»، وأكثر ما يثيره أن تعيّره بقولك: «يا بو فطايس»، لأن النمر لا يأكل فريسته إلا قنصاً».

والحقّ أني كنت قد تعلمت من أحد شيوخ القرية قوله المأثور في مثل هذه الحالة: «البطّال لا تعالجو بيعملك شغلتو»، إلا أن العناية الإلهية تخلت عني، فنسيت هذه الحكمة، عندما التقيت يوماً بالأخ أبي كايد في مساء يوم قارس، وكان الثلج يغطي الأرض وهو ما زال يتساقط بغزارة، فأحببت أن لا أمر بأبي كايد مرور الكرام، وأردت أن أتبسّط معه ولو بعبارة عابرة، فقلت عندما صرت مواجهاً له: «الليله ليلة ضباع»، وكنت أعني أن غزارة الثلج قد تدفع الضباع إلى القرية، وهو اعتقاد سائد عند القرويين.

فمد أبو كايد يده مصافحاً، وقبض على يدي بشدة وقال: «على سيرة الضباع أروي لك يا شيخ «بو علي» قصة وقعت لي مع أحد الضباع، فقد كنت يوماً مسافراً من قرية «الجش» إلى قرية «حرفيش» في فلسطين، وكان الوقت مساء ـ

يسعد مساك ومسا كل طيب ـ وكان أخوك أبو كايد في تلك الأيام شاباً مثل فرخ العقاب»...

شعرت بالزمهرير يلفحني وبالثلج يلفّني وبالظلمة تتثاقل عليّ، ورغبت أن أتملّص من أبي كايد، إلا أن يده كانت ما تزال مطبقة على يدي، ولا سبيل للخلاص قبل انتهاء القصة، ولو «زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت أثقالها».

قلت: «الخلاصة». قال: «الخلاصة، الله يخلصك من كل مكروه، فقد كنت يومئذ أحمل بندقية «سواري فرنساوي» لا مثيل لها في هذه البلاد، وكنت قد اشتريتها من المرحوم فندي سيف ـ يرحم مواتك ويرحمو ـ وهو كان قد اشتراها من...».

فقلت مقاطعاً: «وماذا حدث معك على طريق قرية حرفيش؟».

قال: «أريد أن أخبرك أولاً أن المرحوم الحاج محمد عبد الله علم بخبر البندقية، فأراد أن يحصل عليها مهما كلف الأمر، فكلّف المرحوم حسن عواضه بشرائها منّي بأي ثمن كان، إلا أن أخاك أبا كايد يعتقد أن البندقية والزوجة لا يحل بيعها، وعلى سيرة الزوجة، فقد كان لأحد مشايخ جبل الدروز زوجة فاضلة لم تنجب أولاداً، والمثل بيقول: «المرا العاقره خير من العاقبه»...

وأردت أن أردّه إلى صلب الموضوع، فقلت: «والنتيجة»؟.

قال: «النتيجة أن المرا اسمها «حرمه» لأن الله، سبحانه وتعالى، حرمها من العقل، فهي مثل المعزايه، إن تركتها على هواها أكلت الأخضر واليابس، وعلى سيرة المعزايه، تأكد يا شيخ بو علي أن المعزايه حشره لئيمه، صحيح! ولكن جناها أكثر من أذاها، بتاكل من لبنها، وبتاكل من لحمها، وبتاكل من شعرها، وبتاكل من بعرها - بلا مواخذه من حضرتك - وإذا ماتت بتعمل من جلدها جراب للزوّاده».

وتابع أبو كايد، دون أن يبلع ريقه أو يرف له جفن، ودون أن تتحلحل قبضته عن أصابعي من «دنقٍ» أو وهن، فقال: «بشير قَطّان - يرحم مواتك ويرحمو - دعس بالميّه وعشر سنين، وبقي حافظ لياقتو، وبس نوى يموت، وطلب يكتبولو وصيّتو، جمع ولادو، وولاد ولادو، وولاد ولاد ولادو: واحد وعشرين ضرّاب عصا، عدا الفروخ والجلابيط، وقال - والرجال بتنذكر بقوالها وفعالها - يا ولادي وصيتي الأخيره هي: «المعزى عز لا تقطعوها من دياركم».

وشعرت برجليَّ تتورّمان من شدّة البرد، إلا أن قبضة أبي كايد كانت ما تزال تضغط على يدي، وحديثه يجرّني خبط عشواء حتى خشيت أن تصيبني المنايا فتميتني قبل انتهاء القصة، فقلت له: «وين صارت قصة الضبع، لا بد أن

تكون قد قضيت عليه بطلقة واحدة من بارودة السواري فرنساوي».

قال: «إني أريد أن أبرهن لك أن الضبع حيوان جبان، والضباع تكثر في نواحي قرية حرفيش، إلا أنه فاتني أن أخبرك أن المرحوم حسن عواضه كان صديقاً حمياً لي، وقد رافقته مرة في سفرة إلى بلاد بعلبك، وكان حسن يحمل بندقية، وكنت أنا أحمل خنجراً فقط، وحدث أن تصدّى لنا جماعة من أبناء قرية الرفيد، دون أن يعرفوا مَن نحن، فما كان مني إلا أن ضربت يدي على خصري وسللت خنجري وصحت بهم: «أنا بو كايد ورجالي بتعرفني»...

وهنا ترك يدي ليصنع بيده إشارة استلال الخنجر، فأصبحت يدي طليقة، فقلت له: «سلمت يمينك»... ومشيت...

وهكذا بقيت قصة ضبع حرفيش بدون ذنب.

وكنت أعلل نفسي بفرصة أكون فيها متفرغاً - على حد تعبير أبي كايد - لسياحة قصصية أخرى معه، بين فلسطين وبعلبك وجبل الدروز والرفيد، لعلي أصل أخيراً، ولو أنهكني التعب، إلى قرية حرفيش، لأشاهد نهاية قصة ضبعها الجبان.

إلا أن المنية عاجلت هذا الصديق الفريد قبل معرفة نهاية قصته هذه فبقيت من القصص اليتيمة.

القضيه فيها وما فيها

تعلمت من الشيخ أبي حمد الحرفوش حكمتين: حكمة التأني وحكمة الصبر، قال: «كان ذياب ابن مرّه أحكم أهل زمانه، ومع ذلك تمنى أن تكون رقبته طول رقبة الجمل، حتى إذا أراد أن يتكلم، كان بإمكانه أن يفكر قليلاً قبل أن يصل كلامه إلى لسانه، حتى إذا وجده غير مناسب أعاده إلى بطنه».

وفي موقف تعزية بشاب وحيد، تحدّث الشيخ أبو حمد فقال: «عاش في ما مضى رجل اسمه «بو علي» شيبوب، اشتهر في بلاد الشوف بصبره وحكمته، حتى قيل «ما صبر صبر أيوب إلا بو علي شيبوب».

فقد كان ابنه الوحيد «علي» فارس الفرسان وزينة شبان ذلك الزمان، إلا أن الله استرد منه «أمانته» وهو ما زال في شرخ الشباب.

وقبل أن يمر أسبوع على وفاته حضر وفد من أجاويد جبل الدروز للمجابرة والأخذ بالخاطر، فقيل لهم ان الشيخ أبا علي

موجود عند نسيب بك جنبلاط، فقفلوا متوجهين إلى دار المختارة.

وعندما وصلوا ودخلوا، حيّوا صاحب الدار، وصابحوا الحاضرين والسامعين، ثم أقبلوا على الشيخ أبي علي معزّين، فقال كبيرهم: «عز علينا يا شيخ بـو علي كسر خاطرك بفقد سندك وولدك الوحيد، زينة الشبان وفارس الفرسان، ونحن، عليم الله «قاصدين» لتقديم واجب التعزية، لأنك من أجاويد الرجال والأجاويد «بتنفقد».

فأجاب الشيخ بو علي: «أنا لا أستحق عناكم» ويكفيني رضاكم، وابني واحد من شبان الطائفة، وهو للطائفة وليس لي، وقد خسرته الطائفة، وأنا واحد من أبنائها مثلكم، وها أناذا الآن جئت أعزّي زعيم الطائفة به، فإذا كان لا بد من تقديم التعازي فإلى نسيب بك بالذات».

عاش أبو حمد الحرفوش سنواته الأخيرة في مزرعة «برغز» التابعة لحاصبيا. وحدث سنة ١٩٣٥ أن ظهرت في لبنان عصابة خطيرة، يقودها رجل اسمه فؤاد علامه.

تولى فؤاد علامه هذا قطع الطرق وتشليح المارة، إلا أنه كان يعامل النساء بكل احترام، وقيل انه كان يأخذ من الأغنياء ويعطي الفقراء حتى أحبه الناس، وتناقلوا أخباره بشغف ممزوج بالخوف ونسجوا حوله الأساطير.

وحدث ذات يوم، إن رابط فؤاد علامه، قرب جسر

الخردله، وأوقف عدداً من السيارات، واستولى على أموال ركابها، ثم توغل في الأحراج المجاورة.

وهب رجال الأمن إلى تطويق تلك المنطقة، بحثاً عن فؤاد علامه، وأخذوا يستجوبون سكان القرى والمزارع المجاورة، ولا سيما الدروز منهم، لأن فؤاد علامه كان درزياً، ولذلك جيء بصديقنا أبي حمد، مع بعض سكان مزرعة برغز، إلى حيث تولى التحقيق معهم أحد المحققين.

سأل المحقق أبا حمد قائلاً: «هل رأيت فؤاد علامه أو عرفت عنه شيئاً؟» فأجاب بالنفي.

ثم سأله: «وإذا عرفت عنه شيئاً في ما بعد، فهل أنت مستعد أن تخبر السلطة عنه؟».

فتريّث الحرفوش قليلاً، ثم أجاب: «القضيه فيها وما فيها»... فثارت أعصاب المحقق ولم يمهل أبا حمد لشرح وجهة نظره وبيان رأيه، بل أمر حالاً بتوقيفه على ذمة التحقيق، بتهمة كتم معلومات.

وعندما أُفرج عنه، بعد عدة أسابيع، ذهبت للسلام عليه ولُمته بقولي: «سامحك الله، يا شيخ أبا حمد، أما تذكرت حكمة ذياب ابن مرّه، الذي تمنى أن تكون رقبته طول رقبة الجمل، لكي يقدر أن «يزين» كلمته قبل أن تصل إلى لسانه، فقد تسرعت بالجواب مع أنك من أصحاب الرأي والتبصر.

فمشط لحيته بأصابع يده وأجاب: «إذا وقع القدر عمي البصر».

فقلت: «وهذه حكمة ثالثة أتعلمها منك».

«إذا وقع القدر عمي البصر»

وهذا المثل معروف عند الذين يؤمنون بالقدر، أو «المقدّر» ـ بلغة العامّة ـ إلا أن قليلين يعرفون أصل هذا المثل وقصته:

يقول الشيخ أبو حمد الحرفوش، ان سيدنا سليمان عليه السلام، الذي أعطاه الله عز وجل موهبة التكلم مع الطيور وفهم لغاتها، كان قد صادق نسراً عظيماً، هو ملك طيور زمانه، وكان يركب بين جناحيه، فيطير به فوق أجزاء مملكته، كلما أراد التنزه أو الاستكشاف.

وفيما كان النسر محلقاً به في أحد الأيام، سأله عما يرى تحته، فقال سليمان: «إني أرى هيكلي العظيم والناس يدخلون ويخرجون».

ثم حلّق به عالياً وسأله مرة ثانية عمّا يرى، فقال: «إني أرى مدينة القدس مثل رجمة من الحجارة، ولا أميّز هيكلي من سواه».

ثم انطلق النسر إلى أعالي الجوّ وسأله عمّا يرى، فقال سليمان: «إنّي لم أعد أرى شيئاً» فضحك النسر وقال:

«ولكنني أرى كلّ شيء على وجه الأرض، إلى درجة أنني أرى الآن، فيما أرى، بالقرب من إحدى الأشجار في جبل الزيتون، نملتين تتقاتلان على حبّة من الحنطة».

فقال سليمان: «يا للعجب! أيمكن أن يكون هذا ممكناً، أنزلني إذن هناك لأرى بعيني فأصدّق كلامك».

فهبط النسر بسليمان إلى حيث أراه النملتين وحبّة الحنطة التي كانتا لا تزالان تتنازعانها تحت شجرة الزيتون، فذهل سليمان وأخذ يثني على صديقه النسر ويهنئه على ما حباه الله به من مميزات دون سائر المخلوقات، فجعله بحق سيّد الجوّ وملك المجنّحات.

فرنّح الغرور عندئذٍ أعطاف النسر وأخذ يختال تيها واعتداداً، ولم ينتبه لشرك كان منصوباً أمامه، فلم يلبث أن وقع فيه وصاح: «بالله عليك أنقذني يا صديقي العزيز».

فابتسم سليمان وقال له: «كيف قدرت، وأنت في أعالي الجو، أن ترى النمّلتين وحبّة الحنطة، ولم تقدر الآن، وأنت على الأرض، أن ترى هذا الشّرك المنصوب أمامك»؟.

فأجاب النسر: «إذا وقع القدر عمي البصر». وجرى كلام النسر مثلاً منذ ذلك الزمان.

بعد فوات الأوان

نقولا طعمه من مزرعة «الخريبه» التي هاجر جميع سكانها فأصبحت اسماً على مسمّى، هاجر هو بدوره إلى كندا، حيث أصاب نجاحاً لا بأس به، وعاد بعد خمس وأربعين سنة، مع امرأته، واستأجر بيتاً في إبل السّقي، واشترى فرساً كان يركبها يومياً في نزهة إلى مسقط رأسه.

عاشرت الرجل وأحببته، فبادلني المودة وأنزلني من نفسه منزلة الصّديق، وأفضى إليّ ذات يوم بسرّه الدّفين، قال:

«كنت في الرّابعة عشرة من عمري عندما هاجرت إلى كندا، كان والِدي فلّاحاً في الخريبه، وكانت هوايتي الوحيدة «فخّاً» أحمله معي، عندما كنت أخرج يومياً لأرعى بقرات والدي، فأنصبه عند مضارب عصافير «الرمّود».

وفيما كانت بقرات والدي ترعى بين أشجار الزيتون، كنت أتنقل باحثاً عن رمّود، فأشرع بالغناء له حسبما يفعل صبيان القرية، الذين ينشدون أغنية خاصة للرمّود وأخرى لأبي الحنّ وثالثة للعضويضة، الخ.

وكنت أعتقد أن الرمّود كان مجذوباً بأغنيتي وإلاّ فلماذا يحرك ذنبه ويقفز أمامي باتّجاه الفخ الذي سرعان ما يطبق عليه وتتمّ الغنيمة الكبرى.

وكان أبي قد اشترى بقرة من رجل من آل العدس من راشيّا الفخّار، وكانت كلما غضضنا الطرف عنها تهرب إلى راشيّا حيث تركت عجلها عند صاحبها الأوّل، وكان والدي يتجشّم متاعِبَ إعادَتِها ويوبّخني على إهمال البقرة والتلهّي بالفخّ اللّعين.

وفي ذات يوم نصبت فخّي تحت قرعوشة[1] أبي عسكر، وهي إحدى أفضل مضارب الرمّود في تلك الناحية، ومضيت أبحث عن رمّود جديد.

ثم افتقدت البقرة فلم أجدها، فهرعت وراءها باتّجاه راشيّا حيث وجدتها قد سبقتني إلى بيت العدس.

ورفض السيّد العدس أن يسلمني البقرة، وقال: «اذهب وقل لأبيك أن يأتي ويسترجع ثمنها، فإن بيعها لا يحلّ بعد الآن».

وخشيت أن أعود إلى الخريبه، ولجأت إلى بيت أحد أنسبائي في راشيا.

(١) القرعوشة هي زيتونة شائخة قليلة الأغصان.

وسُوِّيت المشكلة بين والدي وبين آل العدس، إلا أنها لم تسوَ بيني وبين والدي الذي أقسم أمام أهالي راشيّا على شدّ وثاقي إلى ساق قرعوشة أبي عسكر وتعليق الفخ في عنقي لأكون عبرة لكل ولد طائش.

وأرسلت تهديداً إلى والدي بالانتحار في غدير «الشاغوريّه»، إذا لم يرسل إليّ سبع ليرات ذهب لأسافر بها إلى كندا، فلم يأبه بتهديدي. إلا أن والدتي أرسلت إليّ ما طلبت سرّاً، فسافرت مع بعض المسافرين من أهالي راشيّا.

وضربت في أرجاء كندا ودرجت في مختلف مراحل الحياة، وحالفني الحظ فتوفّقت بأشغالي، وتزوّجت ورزقت أولاداً ربّيتهم تربية صالحة فانطلقوا في سبيل النّجاح، وأسدلت ستاراً على ماضي حياتي، وتناسيت ذكريات طفولتي القاتمة.

وشعرت أخيراً بالاكتفاء، فتركت أشغالي لأنصرف مع امرأتي إلى العيش بهدوء وسكينة.

وسهدت ذات ليلة، فوجدت نفسي، على غير قصد مني، محمولاً على أجنحة الماضي، وإذا بي بعد خمس وأربعين سنة أتذكّر قريتي النائية، وخيل إليّ أني أرى والدي بقامته الفارعة وثيابه الخشنة، وأخذتْ صورته تزيد وضوحاً، فبدت قسمات وجهه متجهّمة قاسية، وخلته يصيح بي: «كيف أهملت البقرة أيها الولد الطائش».

وارتعدت فرائصي لهول هذه الذّكرى، وحاولت أن أطرد هذه الرؤيا فلم أجد إلى ذلك سبيلاً، ونمت بعد مجالدة شاقة، إلا أنّي لم ألبث أن أفقت مذعوراً على صوت انطباق فخّي العزيز.

فقد رأيت في منامي قرعوشة أبي عسكر والفخّ منصوباً تحتها والرمّود يقفز أمامي، ثم يقع في الفخّ الذي أحدث انطباقه صوتاً أجفلني وحرّك جميع مشاعري.

وتذكّرت حينئذ أني تركت الفخّ منصوباً تحت قرعوشة أبي عسكر منذ خمس وأربعين سنة.

ماذا حدث للفخّ يا ترى؟ قد يكون أحد صبيان القرية وجده منذ زمن بعيد، وقد يكون ما زال مطموراً في التّراب حتّى يومنا هذا.

وصار الفخ يعـذّبني، وبتّ كلّما أغمضت أجفاني أرى صورته ماثلة أمامي، وأخذت تنجلي صور الماضي البعيد في مخيّلتي، فأرى صبيان القرية أترابي يركبون على الجحاش العارية، والصّبايا يسرن باحتشام والجرار الملأى على رؤوسهن، إلا أن صورة قرعوشة أبي عسكر بقيت أكثر هذه الصّور وضوحاً، حتى صرت كلما غفوت سرعان ما أفيق على صوت انطباق الفخ الذي استعبدني وأفقدني طعم الرّاحة التي كنت قد وعدت نفسي بها بعد جهاد طويل.

وقلت أخيراً: «اذهب يا رجل وفتّش عن الفخ».

وأقنعت زوجتي بزيارة لبنان وبالتّفتيش عن الأملاك التي تركها والدي في الخريبه حيث لم يبق أحد من أهلي فيها.

وجئت إلى إبل السقي وابتعت فرساً كما تعلم، وصرت اذهب يوميّاً إلى الخريبه، وأطوف حول قرعوشة أبي عسكر، واجيل نظري تحتها، مع علمي الأكيد بأني لن أجد شيئاً».

هذه هي قصة الخواجه نقولا التي استودعنيها أمانة غالية، قبل عودته إلى كندا، وطلب مني أن لا أبوح بها إلى أحد خوفاً من أن يتهمه الناس بالجنون.

ولكن قصة الفخ أخذت تعذّبني أنا أيضاً، ماذا يمكنني أن أفعل لأختم قصّة هذا الرجل المعذّب؟.

ليتني أحضرت فخّاً ونصبته تحت القرعوشة ساعة مجيئه، ويا حبّذا لو أنّني استطعت أن ألفّق أيّة قصّة عن مصير الفخ.

وانتابتني قناعة بأن الرّجل عاد إلى كندا مغلوباً في معركة الفخ، وبأنّني تخاذلت أنا أيضا عن تقديم العون الذي انما كان يطلبه مني عندما أطلعني على دخيلته.

ومرّت سنوات، وإذا بي يوماً أرى فلاّحاً يحمل فخّاً قديماً كاد الصدأ أن يأتي عليه، وقد وجده مطموراً في التّراب.

فقبضت على الفخ وسرت توّاً إلى منـزل أحد أنسبـاء الخواجه نقولا لأسأله عن عنوانه، فإذا به يقول: «إذنْ فقد علمت بوفاته وتريد أن تكتب إلى زوجته معزياً».

فشة خلق

روى الشيخ سعيد تقي الدين إنه التقى يوماً في إيطاليا، أحد رجال الأعمال، وعرّفه بأنه من بيروت، فقال الرجل: «إذن أنت من البلاد التي يجر الرجل فيها سجادته إلى الشرفة «ويبرقعها قتله» ـ على حد تعبير الشيخ سعيد ـ إذ إن السجاد له كرامة وحـرمة عنـد الأوروبيين فلا يستحلون ضـربه بـالعصي كلما أرادوا نفض الغبار عنه».

و ينسب إلى أحد مشاهير اللبنانيين قوله «المرا متل السجّاده ما بتنظف إلا بالخبيط».

أحسن أيامك استماع كلامك

على أثر مقتل ابنه في حاصبيا سنة ١٩٢٥، رحل عنها أبو يوسف مع عائلته، وأقسم أن لا يعود إليها حيّاً، وجاء إلى قرية إبل السقي فأنزله أهلها بينهم على الرّحب والسّعة.

في ذلك الوقت كانت إبل السقي بحاجة إلى حكايات وأمثال جديدة، لأن الأقوال والمصطلحات المستعملة كانت قد بهتت وقلّ مدلولها من كثرة اجترارها حول مواقد الشتاء وفي شتّى المناسبات.

وبعبارة أخرى، كانت القرية متلهّفة إلى ثقافات شعبيّة جديدة تغذّي نفوس سكّـانها، وتفتح أمـام تخيّلاتهم آفـاقاً جديدة.

وكان أبو يوسف رجلاً متقدماً بالسِّن، حَنَّكته الأيام، واكسَبته معاشرة الدّروز شيئاً من حكمة شيوخهم، فأحبّـه أهالي إبل السقي وأحبّهم حتى قرّر الإقامة بينهم إلى ما شاء الله، وكان يقول: «عشرة الخلّان بتنسّي الأحزان» للإشارة إلى أن حسن معاملة أهالي القرية له أنساه حزنه على ابنه.

تصدّر أبو يوسف مجالس القرية فأقبل الناس على سماع كلامه:

«الجَنّه بلا ناس ما بتنداس».
«حتى تستريح قُول عن كل شي مليح».
«عِشرة الشطّار بتطول الأعْمار».
«البيت اللّي ربّو مَرا كرمالو لورا».
«لو قلّة العقل بتوجع، أغلب الناس بتقضي عمرها بالصّريخ».

إلى ما هنالك من الأمثال والحكم التي تدل على ثقافة شعبيّة متفتحة. ففي إحدى المناسبات قيل عن أحد الرّجال انه كريم وغنيّ «ولا خلفو ولا قدّامو»، فاغتنم المناسبة وقال: «خلفو» تعني أباه وأمّه، و«قدّامـو» تعني أولاده، أي ليس عنده أب أو أم أو أولاد.

رَحّبَ الكهول والشّيوخ بالمعلّم واعتنقوا أفكاره، إلا أنّنا، معشر الفتيان في ذلك الزّمان، شعرنا بحَرَج شديد لأنّه أخذ يتحدّانا كلّما ضمّنا مجلس به.

- «يقول المثل: «كل ما هَـبّ ودَبّ»، فهل تعرفون يا شبّان ما هو «الهَبّ» وما هو «الدَبّ»، وعندما نعجز عن الجواب يقول: «الهَبّ» هو الإنسان الذي يهبّ واقفاً، و«الدَبّ» هو الحيوان الذي يدبّ على الأربع». ثم ينظر إلينا وكأنه يقول لنا: «بعد ناقصكم علم».

- «يقول آباؤكم، يا أولاد: «سنبيع فوقنا وتحتنا» ونعلّم أولادنا، فما معنى «فوقنا وتحتنا»؟. ويفترض سلفاً أننا لا نعرف ويجيب: «هما اللّحاف والفراش، فهما أوّل ما يُقتنى وآخر ما يُباع».

هكذا استَهْوَتنا ثقافة أبي يوسف لطرافتها، فأقبلنا نحن، كذلك، فتيان القرية على سبر أغوارها واكتِناه أسرارها، بالرّغم من الحرج الذي كانت تسبّبه لنا أمام رجال القرية.

- يقول المثل: «رجعت حليمة إلى عادتها القديمة»، فهل تعرفون من هي حليمة؟

كانت كتبنا المدرسية، في ذلك الزمان، تعلّمنا قصة جان دارك وتاريخ كليوباترا وسيرة كاترين واليصابات وفيكتوريا، لكنها لم تذكر لنا شيئاً عن هذه الطيّبة الذكر «حليمة»، لذلك أسقط في يدنا.

قال: حليمة هي زوجة حاتم طي، الذي اشتهر بالكرم، أما اشتهرت حليمة بالبخل، فكانت إذا أرادت أن تضع السمن في الطبيخ، أخذت الملعقة ترتجف في يدها.

وأراد حاتم أن يعلّمها الكرم، فقال لها إن الأقدمين كانوا يقولون ان المرأة إذا أرادت أن تحتفظ بشبابها، فلا يشيب شعرها أبداً، عليها أن تبحبح السمن في الطعام. وسرعان ما لاحظ ضيوف حاتم طي التحسن المفاجىء في الطعام فقالوا: «صارت حليمة كريمة».

ثم لم يلبث أن بدأ الشيب يوخّط رأس المرأة، فقلقت أفكارها وراحت تسأل قهرمانات ذلك الزمان عن أسباب الشيب، وكانت إحداهن تعرف قصة السمن، فقالت لها إن الأقدمين كانوا يقولون إن المرأة لا يُصيبها الشيب المبكّر، إلاَّ إذا كانت تُكثر السمن في الطعام. وسرعان ما لاحظ ضيوف زوجها رداءة طعامها، فقالوا: «رجعت حليمة لعادتها القديمة».

وسأل يوماً: «أتعلمون قصّة المثل القائل: «بين حانا ومانا ضاعت لحانا» ولم يمهلنا حتى نبلع ريقنا، وتولّى الإجابة بنفسه:

- «كان جحا قد تزوّج في أيّام شبابه امرأة اسمها «حانا» وعندما صار كهلاً، وجد أنها كبرت، وكانت نفسه لا تزال «خضراء» فتزوّج امرأة أخرى صبيّة اسمها «مانا».

وكانت «مانا» هذه تكره رؤية الشّعر الأبيض في لحية جحا، فتأخذ بانتزاعه كلما دنا منها، حتّى لا يبقى فيها إلاّ الشّعر الأسود فتشعر أن زوجها ما زال شابّاً، في حين كانت «حانا» تغتاظ من رؤية الشّعر الأسود في لحية زوجها فتأخذ بانتزاعه كلّما وجدت إلى ذلك سبيلاً، فتشعر أنّه صار كهلاً مثلها.

لذلك لم يمض سوى وقت قصير حتى شعر جحا بأن

لحيته توشك أن تصبح بدون شعر، فقال: «بين حانا ومانا ضاعت لحانا».

هكذا أقبلت مواسم الكلام عند الرّجل وأينعت ثمارها، فنام على حرير الرّضى عن نفسه متغنيّاً بمثله المفضل «أحسن أيامك استماع كلامك».

إلا أن عصره الذهبي لم يطل أكثر من عشر سنوات كانت القرية خلالها تتطوّر بسرعة.

قسم من أهاليها نزحوا عنها.

دخلت السيّارة في حياة الناس فقلّلت عمل أرجلهم ووَسّعت عمل خيالهم.

زادت نسبة المتعلمين وقلّ عدد القانعين باجترار الأقوال المبتذلة.

سمع جميع الناس ما كان في جعبة الرّجل من حكايات وأمثال.

نضب معين أبي يوسف، فصار كلّما كرّر أقواله، كلما زهد السامعون بها وأعرضوا عنها.

لم يبق له صدر المجلس.

بدأت مواسم عزّه تبور.

صار النّاس يقاطعونه بوقاحة لم يعهدها من ذي قبل.

أخذ الشبّان يردّون إليه التحدي:

- «أتعلم أين ولد نابليون بونابرت»؟.

- «أتدري أين دُفن الاسكندر ذو القرنين»؟.
- «أتعرف مَن أحرق مكتبة الاسكندرية ومَن بنى سور الصّين»؟.

وإذ لم يكن عنده ما يجيب، بدأ يتجنب محادثة الأذكياء ويتنكّب مجالس المتعلمين، ثم قبع أخيراً في بيته لا يبرحه إلاّ اضطراراً.

قال قائل إن صحته ليست على ما يرام.

وقال آخر إنه ربما كان على خلاف مع أهل بيته.

وتكهن ثالث بأن جيبه تعبان، أي أنه محشور مادّياً وزعم رابع أن مكاتيب المهجر تأخّرت عن جاري عادتها فقلقت أفكاره بسببها.

وفي صباح أحد الأيام شوهد وهو يحزم أمتعته، مستنفراً زوجته وأولاده استعداداً للرّحيل، فجئنا مع بعض الأصدقاء نقول له: «ماذا رأيت من قلّة الواجب حتى تفارقنا بهذا الشكل «كأنك جيت تاخذ ناره لتولّع سيكاره» وهو مثل كنّا قد تعلّمناه منه لاستعماله في مثل هذه المناسبة. فلم يحر جواباً، وكأنّي به كان يتذكّر في تلك الساعة مثله المفضل «أحسن أيامك استماع كلامك».

حكمة الأجداد في الأحفاد

كان يعقوب الحكيم من أكابر الرّجال «للسيّف والضّيف وحشرات اللّيالي» ولا تزال أنقاض مطحنة الحكيم قائمة على نهر الحاصباني شرقي إبل السقي، حيث كان الحكيم قد جعل مقرّه فيها، وكانت في ذلك الوقت «مزراب ذهب» كما يقول العامّة.

اشتهرت عائلة الحكيم بالحكمة أي الطبّ، وكان يعقوب أشهر حكماء آل الحكيم، وكان الطّب في مطلع القرن الماضي خليطاً من الأوهام والحقائق، فبالإضافة إلى بعض الحشائش والحبوب كالخردل وبزر الكتّان كان العسل عنصراً أساسيّاً في كلّ دواء مركّب، وآخر علاج كان «الكي» حسبما يقول المثل الشّائع.

ولا تسل عن كتابة الحجابات وفكّ الرّصد وربط لسان «الوقش» أي الوحش، إلى ما هنالك من الخزعبلات التي كانت تفعل فعل السِّحر في عقول النّاس.

وكان الحكيم، إلى جانب حكمته، رجلاً مرهوب الجانب

مسموع الكلمة معتمداً على أولاده الثلاثة لقمان وسليم وأمين في بسط نفوذه وإشاعة الأمن في المنطقة المحيطة به، حتى قيل إنه «ربّى القمل في رؤوس الأشقياء».

وحدث يوماً عرس في قرية الفرديس، فأخذت النّشوة والد العريس وبدأ يلعب بالسيف، وانتهى العرس إلا أن الرّجل أبى أن يلقي السّيف من يده، وبقي يلعب وحده وينادي «صحائف».

وعرف ذوو الرجل أنه أصيب بجنة في عقله لم يتمكّنوا من معالجتها بوسائل الاقناع، وكان لا بد من استدعاء يعقوب الحكيم، لكي يقوم بكيّ الرّجل على صدغيه، لأن الكي في ذلك الوقت كان العلاج الوحيد في مثل هذه الحالة.

غير أن الحكيم عندما حضر، حيّا الرجل وقال: «بلغني بأنك من أسياد لعب السّيف وقد أتيت لمبارزتك». وتناول سيفاً وأخذ يبارزه.

وكان الرجلِ منهوك القوى خائر العزم، إلا أنّ الحكيم أخذ يتراخى حتى سمح للرّجل أن يتغلّب عليه، ثم قال له: «إنك قد غلبتني في الشّوط الأوّل لأنّي جائع، وأريد أن أتعشّى الآن لأعود وألعب الشوط الثاني معك».

وجيء بالعشاء فجلس الحكيم إليه، إلا أن الرجل أبى أن يترك السيف من يده، فقال الحكيم: «هذا لا يجوز لأني

إذا غلبتك في الشوط الثاني، فقد تزعم كما زعمت أنا، بأنك كنت جائعاً، لذلك يجب أن نأكل معاً، ومن نفس الطعام حتى تكون المبارزة متعادلة».

فجلس الرجل مكرهاً، وبدأ الحكيم يتحدث عن أصول لعب السيف، وعن المباريات التي لعبها في زمانه، وصار يتنقل من حديث إلى حديث حتى نسي الرجل نفسه، وكان قد أضناه التّعب فاستلقى ونام إلى أن استيقظ في اليوم التالي سليم العقل والجسم.

وممّا لا ريب فيه أن هذه الحادثة وقعت قبيل منتصف القرن الماضي حسبما تدلّ القرائن.

ففي تلك الأيام كان الدكتور طمسن، وهو أول مرسل أميركي إلى بلادنا، قد جعل حاصبيا مركزاً له، يرتاده من وقت إلى آخر، وقد قرأت مرّة في النّشرة الأسبوعيّة أن المرسل المذكور جاء إلى بلادنا سنة ١٨٤٥.

تناقل الناس قصّة مجنون الفرديس حتى بلغت مسامع الدكتور طمسن، فأدهشته طريقة معالجته التي تدل على ذكاء يعقوب الحكيم وبُعْد نظره، فزاره وتعرّف إليه وصار له صديقاً حميماً.

وقد تحرّيت سيرة يعقوب الحكيم من شيوخ القرية الذين كانوا يتناقلون أخباره، فعلمت بأن الدكتور طمسن كان قد

لقّن الحكيم بعض قواعد الطّب الحديث وزوّده بالأدوية المعروفة حتى ذلك الوقت.

وتأثر الحكيم بصديقه الجديد فاعتنق المذهب البروتستنتي مع أولاده وأصهرته، وكان اعلان الحكيم للمذهب الجديد بمثابة تكريس بالقوّة لبدعة لم يتجرأ أحد قبله على المجاهرة بها.

وذاع صيت الحكيم وفضله حتى أن الدكتور فانديك قصده زائراً وبقي في ضيافته عدّة أيام.

* * *

ثم مرّ قرن من الزمن نسي الناس فيه حديث الحكيم وطمسن وفانديك وبدأوا يتحدّثون عن رعيل جديد من المرسلين الذين ما زالوا يطرقون بيوت النّاس مبشرين بملكوت الله.

وكان هؤلاء الوعّاظ صادقي الإيمان متجدّدين بالمسيح يتحدّثون بالعربيّة ويخطبون بحرارة داعين الناس إلى التّوبة مبشّرين باقتراب ملكوت السّماوات.

ووجدت أقوال أحد المبشرين سبيلاً إلى قلب رجل بار في قريتنا، فآمن باقتراب يوم القيامة وترك جميع أشغاله وانصرف إلى العبادة لأنّ النهاية باتت وشيكة جداً.

ورأى الرّجل في إحدى اللّيالي رؤيا عظيمة، ناداه صوت

رهيب: «قم قدم ابنك ذبيحة للرّب إلهك».

فهبّ من رقاده وأيقظ امرأته وأسرّ إليها بما رأى وأصرّ على تنفيذ ما أمر به، غير أن المرأة كانت حكيمة فاستمهلته بما اوتيت من دهاء، حتى استطاعت أن تهرب مع أولادها إلى حيث لا يستطيع أن يهتدي إليهم.

وأوصد الرّجل على نفسه باب بيته وأبى أن يستجيب لأحد حتى قلقت أفكار الناس منه وعليه.

ولكننا فوجئنا في صباح أحد الأيام، عندما رأينا الرّجل يخرج إلى عمله وكأن شيئاً لم يكن، إلا أننا لم نلبث أن علمنا أن العناية الإلّهية ألهمت شاباً من أذكى شبّان القرية، فانسل تحت ستر الظلام في ساعة متأخرة من تلك الليلة، وصعد إلى نكنة قرميد بيت الرجل وطرق على الخشب عدّة طرقات وصاح باسم الرجل، فاستيقظ مذعوراً.

فقال الشاب: «أنا هو الرّب إلّهك وقد أردت أن أجرّبك كما جرّبت ابراهيم فوّجدت ايمانك صحيحاً، فلا تمدّ يدك إلى الولد، وعُدْ إلى أعمالك لأني أجّلت موعد القيامة إلى أجل بعيد».

ولم يكن ذلك الشاب سوى أحد أحفاد يعقوب الحكيم أعاد التاريخ نفسه فيه، ولله في خلقه شؤون.

أهل الكَرامات فيهِم عَلامات

كان الشيّخ «ابو علي سياغه» من أفاضل الرجال، ولكنه بالاضافة إلى ذلك كان «صاحب شوفة»، أي انه كان صاحب خبرة بمعرفة الناس، فإذا رأى رجلاً عرف حالاً ما إذا كان صادقاً أم كاذباً، ذكيّاً أم غبيّاً، كريماً أم بخيلاً، وهذا ما عرف بعلم الفراسة عند الاقدمين.

وحدث يوماً أن كان الشيخ أبو علي متوجهاً، على قدميه، من حاصبيّا إلى مرجعيون، وكان ذلك قبل عهد السيّارات.

وعند وصوله إلى مفرق سوق الخان التقى رجلاً يركب حماراً قادماً من المفرق الآخر وفي نفس الاتجاه، فحدّق في وجهه وقال: «شوفتي أنه ابن حرام».

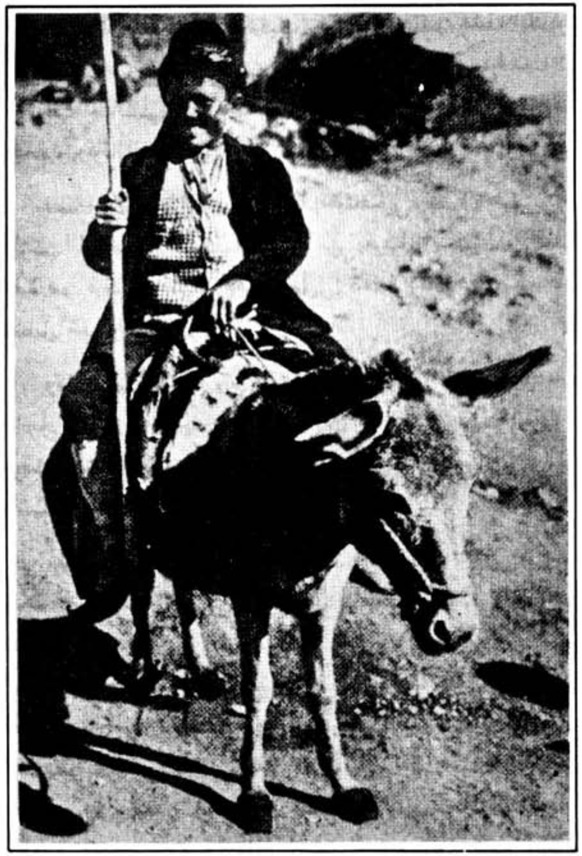
إلا أن الرجل، ما أن اقترب من الشيخ حتى ترجّل عن حماره و«صابح» الشيخ آخذا يمناه بكلتا يديه، وبعد أن قبّلها، سأل الشيخ اين يقصد، فقال: «جديدة مرجعيون»، فهتف الرجل: «ومن حسن حظّي أن أكون أنا كذلك ذاهباً إليها» ودعا الشيخ إلى الرّكوب على الحمار.

قال الشيخ بنفسه: «كيف يمكن أن تصدر هذه البادرة النبيلة من ابن حرام»، وأعاد النظر في وجه الرجل فبدت له امارات قله الشّـرف واضحة جليّة، فاعتذر عن عدم ركوب الحمار، وقال انه يفضّل المشي على مهله».

فصاح الرجل: «ولكن هذا مستحيل لأنه لا يليق أن اركب أنا وتمشي أنت، فقد يمرّ من يعرفنا وينسب إليَّ قلة الحَياء»، فركب الشيخ أخيراً على الحمار مكرهاً، بعد أن تضايق من إلحاح الرّجل.

وكان كلّما أراد أن يهمّ بالنّزول عن ظهر الحمار، اعترضه الرجل وقال: «وحقّ جميع الأنبياء، إذا نزلت عن الحمار، مزّقت بطنه بخنجري هذا، لأن ذلك أهون عليّ من أن أراك ماشياً في هذا الحرّ الشّديد». فيلبث الشيخ راكباً.

وفيما انصرف الرّجل إلى التكلّم عن تقواه، وعن إكرامه واحترامه لرجال الدّين، كان الشيخ قلقاً مشغول الخاطر: «شوفتي بالرجل انه ابن حرام، إلا أن سلوكه معي يدلّ على انه رجل فاضل، فما العمل إذن بهذه المشكلة؟ فإذا ثبتت فضيلة الرجل توجّب عليَّ أن أعيد النَّظر بالمقاييس التي اعتدت أن أقيس الناس بها، لأني أكون اذنْ قد اخطأت في حكمي على هذا الرجل، وربّما على كثيرين سواه، وهذه مصيبة كبرى بالنسبة اليَّ، اخشى معها أن أخسر ثقتي بنفسي».



أهل الكرامات فيهم علامات

وبلغا اخيراً جديدة مرجعيون، حيث ترجّل الشيخ وودّع الرّجل بحرارة، شاكراً له صنيعه، ومشى في سبيله، إلا أنّه لم يبتعد قليلاً حتى ناداه الرّجل قائلاً: «يا حضرة الشّيخ لم تدفع لي اجرة الحمار».

فرجع الشيخ وقال له: «عفواً كم تريد؟» قال: «نص مجيدي» فقال الشيخ: «ما بيصحّ إلاّ الصّحيح، هذا مجيدي كامل، ولا خابت شوفتي فيك».

توكلتُ عليه

لاحظ أحد المستشرقين أن العرب هم أكثر الشعوب ترديداً لذكر الله في أحاديثهم التي تبدأ غالباً بـ «يعلم الله» وتنتهي بـ «إن شاء الله».

مع فيلسوف القريَة في قصَصه وأمثاله

كان «أبو سبيرو» يفضّل أن ندعوه «المعلم» إلا أننا كنا لا نـزال تلامـذة نكره المعلمين لذلك كنا نطلق عليه لقب «فيلسوف القرية».

كانت أقواله تستهوينا لأنه كان يحدثنا بقصص وأمثال كما فعل المسيح وبوذا وسقراط، ومع أنه كان شيخاً إلا أنه كان قد تنكّر لمفاهيم ابناء جيله وانكفأ إلى معاشرة أبناء جيلنا نحن فتيان ذلك الزمان.

دعانا مرة إلى شق طريق عام. ومرةً إلى حفر بئر للقرية، كنا نحمل معاولنا ونسير وراءه، وكان رجال القرية يهزأون بنا، كان الرجل يرى رؤىً لم تكن أبصارهم قادرة على رؤيتها.

قصص «ابو سبيرو» وامثاله ما زالت تحيا في ضمائرنا وعلى ألسنتنا نحن الذين أصبحنا الان كهولاً نمشي في خطى الذين سبقونا من ابناء قريتنا إلى عالم المجهول، ومنهم فيلسوف قريتنا هذا.

لذلك وفاءً له مني ومن أبناء جيلي اسجل هنا بعض القصص والأمثال التي كان يحدثنا بها والتي ما زالت تحيا في ذاكرتي.

من كتم علّته قتلته

«اسكندر بو قرنين» عندما نبت قرناه، كان لا يزال طفلاً، فهدد أبو الاسكندر مربي ابنه بالقتل إن هو أفشى سِرّه خوفاً من الفضيحة، ولم تمضِ سوى مدة قصيرة حتى بدأ الرجل، أي مربي الطفل، يشعر بانتفاخ في بطنه، ثم أخذ الانتفاخ يتفاقم يوماً بعد يوم حتى شعر الرجل أن بطنه يكاد ينفجر.

هرع الرجل اخيراً إلى أشهر دكاتير زمانه، إلا أن أحداً منهم لم يستطع أن يداويه، لأنهم جميعاً لم يدركوا سِرّ مرضه، فلجأ اخيراً إلى المعلم سقراط، وكان سقراط هذا صاحب «شوفة» ودراية، ففهم حالاً علة الرجل وقال له: «يا ابني أخبرني بما خبأت في صدرك حتى انتفخ بطنك، لأن من كتم علّته قتلته».

فقال الرجل: «حقاً اني أخبىء سراً مهمّاً في صدري ولكني لا اقدر أن أبوح به ابداً».

قال المعلم سقراط: «إذنْ اذهب إلى إحدى المغاور

البعيدة حيث لا يسمعك أحد، واكشف سرك هناك بصوت عالٍ يفشّ ورم بطنك».

فذهب الرجل إلى إحدى المغاور البعيدة وتغلغل في داخلها وأخذ يقول بصوت عالٍ: «ابن الملك له قرنان»، «ابن الملك له قرنان»، وكان كلما كرر عبارته فش ورم بطنه، ولم يكد يكررها أكثر من خمسين مرة حتى شفي تماماً.

في عهد بو دكه الواوي أكل السكه

حكم بلادنا في قديم الزمان حاكم اسمه «ابو دِكّه»، وكان أول ما فعله الغاء الضرائب واعفاء المواطنين من الرسوم والجزاءات التي كانت قد تراكمت عليهم من العهود السابقة، فتنفس الناس الصعداء وظنوا خيراً بالعهد الجديد.

إلا أنه سرعان ما اختل الأمن وتفشت السرقات في عرض البلاد وطولها، وكان رجال الأمن في كل مرة يتقاعسون عن ملاحقة المجرمين وصيانة أموال المواطنين، حتى بدأ اليأس يتسرب إلى قلوب الناس وداخلتهم الريبة بنوايا وتصرفات العهد الجديد.

وفي أحد الأيام دخل رجل إلى مجلس الحاكم «أبو دِكّه» وقال: «يا سيدي ذهب أجيري في الصباح ليتابع اعمال الحراثة في الحقل، وعندما أراد أن ينبش سِكّة الحراثة من التراب حيث كان قد طمرها في مساء اليوم السابق فوجيء

بأنها غير موجودة، ولا بد أن يكون أحد الناس قد راقب الأجير وتسلل إلى مكان السكة وسرقها، وهذا ما لم يحدث في عهد أسلافك يا سيدي، لذلك أرجو ملاحقة السارق والاقتصاص منه».

وكان في مجلس الحاكم بعض رجال حاشيته، فقال أحدهم: «أنا أعتقد أن أجيرك هذا رجل منافق وقد باع السكة وتصرف بثمنها وجاء يراوغك بهذه القصة الملفقة».

فقال الرجل: «اجيري رجل بارّ يصوم ويصلي ويتقي الله ويقضي وقته بالتسبيح والحمدلة ولا أشك أبداً بامانته».

فقال آخر: «إذا كان أجيرك كما تقول فلا بد أنه رجل ساذج بسيط القلب وأنه قد نسي المكان الذي طمر السكة فيه، لانشغال أفكاره بالصلاة والتعبد لله عز وجل».

فقال الرجل: «اجيري رجل فطين جداً ولم يسبق له أن اهمل أو نسي شيئاً من واجباته».

فقال آخر: «إذا كان أجيرك أميناً وفطيناً كما تقول فلا بد أن يكون ابن آوى قد مر في المكان ليلاً واشتبه بالأمر ونبش السكة وأكلها».

فضحك الرجل وقال: «اما هذا فمعقول جداً».

عندئذ صاح به الحاكم قائلاً: «ما دمت تعرف إذن أن ابن آوى هو الذي أكل سكتك، فلماذا جئت تتهم أحد

المواطنين بسرقتها وتشوّه سمعة العهد والنظام»؟

فقال الرجل: «حتى لا يقال: «بعهد بو دِكّه الواوي أكل السكّه»».

تحت الجبّة شيطان متخبّي

نـودي في شوارع دمشق، صبـاح أحـد الأيـام، بـأن اللصوص سطوا على صندوق بيت مال المسلمين، وسـرقوا محتوياته. ولذلك أمر الخليفة بأن يبقى كل واحد في بيته لأن رجال الشرطـة سيقومـون بتفتيش بعض البيوت بحثـاً عن الأموال المسلوبة.

وإذا بشاب يخرج تواً من بيته إلى الشارع فيلقى عليه القبض، وعندما يسأله رجال الشرطة يجيب بأنه هو الذي سرق بيت مال المسلمين وأنه يريد مقابلة الخليفة ليفضي إليه بكل ما حدث.

خر الشاب على وجهه أمام الخليفة، عندما سيق إليه، وقبّـل الأرض بين يديه وقال: «أنا يا سيدي سرقت بيت مال المسلمين، والمال موجود الآن عند شريكي».

فسأله الخليفة: «ومن هو شريكك؟».

أجاب الشاب: «شريكي هو قاضي قضاة دمشق!».

فذهل الخليفة ثم صاح به: «ويحك أيها المجرم السافل،

أتجهل أن قاضي القضاة هو اتقى رجـال دمشق وأطهرهم يداً؟».

أجاب الشاب: «كلا يا سيدي، إني لا أجهل ذلك ومع ذلك اؤكد أنه شريكي وأن المال المسلوب موجود الآن في حيازته، وإني ارجوك أن لا تضيع الوقت سدىً بتفتيش أي بيت آخر غير بيت قاضي القضاة».

فأمر الخليفة نفراً من رجاله بالتوجه حالاً إلى بيت قاضي القضاة وتفتيشه، وما هي إلا برهة وجيزة حتى عاد رجال الشرطة ومعهم المال المسلوب وقاضي القضاة حاسِر الطرف منكّس الرأس.

فبصق الخليفة في وجهه وصفعه وشتمه وقال له: «أنت قـاضي قضـاة دمشق كيف سمحت لنفسـك بـأن تشتـرك بارتكاب هذه الجريمة الشنعاء مع هذا الشاب الجاهل الذي سرعان ما تاب عن فعلته وثاب، وجاء منذ الصباح يطلعنا على ما حدث».

فبكى القاضي ولطم وجهه وقال: «العفو يا سيدي فأنا إنسان، والانسان مفطور على الخطأ، والنفس امّارة بالسوء، وقد زيّن لي الشيطان الرجيم هذا المنزلق فانزلقت فيه، إلا أنني لا أعرف هذا الشاب ولا أعرف عنه شيئاً، فأنا وحدي اقترفت هذه الحماقة ولم يعلم بها سوى الله جل جلاله».

فدهش الخليفة وصاح بالشاب قائلاً: «ألست إذن شريك القاضي؟ وإن لم تكن كذلك فمن هو الذي انبأك بما حدث؟».

فقال الشاب: «ليعش سيدي الخليفة، فإن كنتُ قد حصلت على رضاه لأني كشفت له هذه الجريمة فلْيُصغِ إلى قصّتي لعل فيها عبرةً لمن اعتبر».

فطيّب الخليفة خاطره وقال له: «اكشف لنا قرارة نفسك ولا تخف سوءاً».

فقال الشاب: «أنا يا سيدي ابن عائلة غنية ومحترمة وقد تزوجت مؤخراً فتاة مشهود لها بالتقوى والفضيلة، وكنت كلما عدت من عملي أجدها امّا منهمكة بأعمال مفيدة وإمّا منصرفة إلى التعبد والصلاة، فقويت ثقتي بها يوماً بعد يوم.

وفي أحد الأيام عدت إلى منزلي فوجدتها منقبضة النفس مضطربة الخاطر على غير جاري عادتها، وعندما سألتها بإلحاح أجابت بعد جهد أن عصافير الدوري قد جعلت قيلولتها في النهار على أغصان شجرة الرمان الكائنة في وسط الحديقة قبالة شباك زوجتي، فيأخذ ذكور الدوري بمناغاة إناثها، ثم يقومون معاً بحركات وتصرفات، قالت زوجتي إن نفسها تأنفها ولا تطيق رؤيتها.

فطيبت خاطر زوجتي وأمرت حالاً بقطع شجرة الرمان

لكي اوفّر على زوجتي رؤية بعض المشاهد الخلاعية الّتي تقوم بها جماعة الدوري على سجيتها، وحمدت الله الذي قيّض لي هذه الزوجة الشريفة.

وحدث امس أن طرأت عليَّ سفرة إلى حلب، فودعت زوجتي وتوكلت وسافرت على بركات الله، وفيما أنا في منتصف الطريق علمت أن عصابة من الأشقياء ظهرت في تلك المنطقة، فعدت اضطرارياً من حيث جئت، وبلغت دمشق عند منتصف الليل.

وكنت أحمل معي مفتاحاً لباب البيت ففتحت بتؤدة حتى لا أزعج زوجتي ودخلت إلى مخدعي ويا لهول ما رأيت، رأيت يا سيدي، امرأتي في حضن رجل غريب، فصعقت من هول المفاجأة.

وهرب الرجل وتوارت زوجتي كذلك، وقبعت أفكر بمصيبتي، فزوجتي هي ابنة قائد حرسك يا سيدي، فإذا قلت انها خائنة فلا يصدقني أحد، وإن طلقتها فإني لا آمن شر أبيها.

وفيما كانت تتنازعني هذه الهموم سمعت المنادي ينادي قائلاً إن اللصوص قد سطوا على بيت مال المسلمين، فقلت استناداً إلى ما وقع لي الليلة، إن السارق لا شك هو قاضي القضاة، لأن التظاهر بالفضائل قد يكون تغطية للرذائل، و«حاميها حراميها»، و«تحت الجبّة شيطان متخبّي».

وأردف الشاب قائلاً: «أما وقد صدق كلامي في قاضي القضاة، أفيمكن يا سيدي بعد ذلك أن أكون كاذباً في ما ذكرت عن زوجتي، فَمُرْ إذن قاضي القضاة هذا، قبل أن تجرّده من رتبته، أن يسلمني وثيقة الطلاق، وليكن لك معه بعد ذلك ما تريد».

العلّة في النظام لا في الحُكّام

كان لإحد امراء لبنان مطحنة ولّى عليها «مطحنجياً» يستغلها، فيستوفي من كل مدّ قمح «ثمنيّة» طحين، مع العلم أن الثمنية هي مكيول يعادل جزءاً من ثمانية أجزاء من المد، ولذلك سميت ثمنيّة.

«فاشتلق» بعض الناس على المطحنجي بأنه يكيل القمح قبل طحنه بصاع أصغر حجماً مما يجب أن يكون، ثم يستوفي الأجرة طحيناً بثمنيّة أكبر حجماً مما يجب أن تكون، فسرت بين الناس موجة من التذمر بلغت مسامع الأمير، فبادر إلى إبدال بمطحنجي آخر.

وإذا بالمطحنجي هذا ينهج نهج سلفه فيتعالى الاحتجاج ويشتد الهياج، فيبادر الأمير حالاً إلى إبداله بمطحنجي آخر، وبقي الصاع وبقيت الثمنيّة، وبقيت الأصول المرعية حتى ضجت الرعية، فألّفوا وفداً لمقابلة الأمير وعرض الأمر عليه والتظلم لديه.

وقبل أن يستقر المقام بالقادمين عاجلهم الأمير بقوله: «المطحنة مطحنتكم ولا تهمنا إلا مصلحتكم، وقد أبدلنا أولئك الحرامية من المطحنجية حرصاً على المصلحة الوطنية، وإذا كان من يتولى المطحنة حالياً ليس على «قد الخاطر» ابدلناه بسواه حتى يأخذ الحق مجراه».

فقالوا: «ولكن طال عمرك سيدنا، فإن العلة ليست بهؤلاء المطحنجية بل بالصاع والثمنيّة».

فصاح بهم: «كفى! الصاع صاع الإمارة والثمينة ثمنيتها، ولا أقبل أن يتطاول أحد على نظام الإمارة وقوانينها».

العلّة مزمنة

ذكر فؤاد أفرام البستاني في كتابه «على عهد الأمير» أن الجزار كان يقول: «عندي ثلاث مقاطعات: صفد ونابلس ولبنان، لا تنفك ترسل إليَّ محتوياتها. فمقاطعة صفد تسدّني فضةً وذهباً، وجبل نابلس يسدّني رصاصاً وباروداً، وجبل لبنان يسدّني كذباً ونفاقاً».

من خندق ذيبو إلى الجامعة الأميركية
عندما قوّس التلحوقي ابن الحمرا قال له:
«خذها من إيد ابن حلال»

في منتصف القرن الماضي كانت المنطقة المعروفة حالياً باسم «الحمرا» عبارة عن حقول تزرع بالخضار والبقول، بالإضافة إلى عدد من بساتين التوت الموزعة هنا وهناك.

وكانت بعض العائلات المعروفة حالياً ومحلياً تعيش من زراعة البقول والخضار ومن تربية الأبقار وما أشبه ذلك.

ولم يكن للعمران أي أثر في المنطقة، اللهُمَّ إلا بعد تأسيس الجامعة الأميركية، التي كان اسمها في ذلك الوقت «الكلية السورية الإنجيلية»، وبعد أن تملَّك بعض أساتذتها في الأماكن المجاورة، حيث بنوا بيوتهم التي لا يزال بعضها قائماً حتى الآن.

وكانت تفصل بين تلك الحقول والبساتين زواريب «ومعابير» ضيقة ومتعرجة يكتنف جوانبها الصبّير، وتظللها أشجار التين والجميز والبلح.

في ذلك الزمان كان شارع الحمراء زاروباً ضيقاً يتعرج شمالي موقع سينما «الدورادو»، ويتفرع منه جنوباً طريق ضيق

عرف باسم معبور بيت الحمرا، حيث كان يسكن آل الحمراء الذين سمي المعبور باسمهم.

ويقول شيخ معمّر من سكان ذلك المعبور إن منطقة الحمراء كانت في ذلك الزمان إقطاعاً لآل تلحوق، وكان «ابن الحمرا» من قبضايات المحلّة، فأخذ يتطاول على آل تلحوق ويحرّض المزارعين عليهم، فما كان من الشيخ بشير تلحوق إلا ان أقدم على اغتيال ابن الحمرا تخلصاً من أذاه.

ويضيف الراوي قائلاً ان التلحوقي كمن في إحدى الليالي لابن الحمرا في أول المعبور المؤدي إلى بيته، وعندما رجع هذا من السهرة تناول التلحوقي غدّارته وأطلق النار منها على ابن الحمرا قائلاً له: «خذها من إيد ابن حلال».

ويزيد الراوي قائلاً إن التلحوقي، عندما قال هذه العبارة، إنما أراد أن يبرر لنفسه قتل ابن الحمرا، كما يبرر الجزار عمله عندما ينحر أحد الخراف فيقول له: «سبحان من حلّلك للذبح».

ويروي معمّر آخر لعله، أكبر معمّري الحي، الذي يبلغ العاشرة بعد المئة ـ لتاريخه ـ فيقول إن خلافاً وقع بين آل الحمراء وآل تلحوق على ملكيَّة بعض الأراضي. فأقدم آل تلحوق على تصفية آل الحمراء الذين كانوا سبعة اخوان قتلوا جميعاً في مذبحة واحدة كانت، كما يقدر الراوي المذكور، قبل أيام الأمير بشير الشهابي، وكان بيت الحمراء مكان سينما

«بافيون» حالياً، بالقرب من جامعهم الذي ما زال موجوداً حتى يومنا هذا وهو معروف باسم «جامع الحمراء».

وهكذا انقرض آل الحمراء من رأس بيروت وبقي إسمهم فقط، أمّا معبورهم فقد كبر واتسع مع الأيام وصار أشهر شوارع بيروت على الإطلاق.

* * *

هذا هو تاريخ آل الحمراء على ألسنة مواطنيهم، أو على الأصح هذه هي المعلومات، الشعبية عنهم، أما في الواقع، فإن آل الحمراء كانوا من أمراء الحزب اليمني وكانوا يناصبون المشايخ آل تلحوق العداء، لأن هؤلاء كانوا من غلاة الحزب القيسي، في إبان احتدام الخلاف بين القيسيين واليمنيين في لبنان، وكان مقر آل تلحوق في عاليه وعيتات، أما آل الحمراء فقد كانوا يقيمون في رأس بيروت.

والمعروف تاريخياً أن اشتباكاً وقع في رأس بيروت بين الشيخ أحمد تلحوق وواحد من آل الحمراء، فطعن الشيخ أحمد خصمه طعنة قاتلة قضت عليه.

ولم يلبث آل الحمراء طويلاً حتى قتلوا الشيخ شاهين، ابن الشيخ أحمد المذكور، قرب صنوبر بيروت، فثارت ثائرة التلاحقة وهجموا على رأس بيروت وفتكوا بعدد كبير من آل الحمرا.

ومن المرجح أن يكون آل الحمراء قد انقرضوا كما انقرضت عدة عائلات أخرى من الحزب اليمني بعدما سحقهم الأمير حيدر الشهابي في معركة عين دارا سنة ١٧١١ كما هو معروف، ويقال ان آل حيمور في البقاع هم من بقايا آل الحمراء والله أعلم.

ويشير صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت» المكتوب سنة ١٤٥٠ إلى كنيسة في رأس بيروت حوّلها أسلافه إلى أسطبل للخيل، ثم يقول «وعلى ظننا أن مكانها اليوم هو مسجد الحمراء وفيه ضريح الشيخ محمد الحمراء».

أخوان بالحليب وكل واحد على «دينو»

ويقول بعض الرواة، إن أكثر أهالي رأس بيروت الأصليين مثل آل العيتاني والداعوق واللبان وشاتيلا وسواهم هم مغاربة الأصل، ولكنهم لا يعرفون متى قدموا إلى رأس بيروت واستوطنوا فيه.

وتعيش هذه العائلات الإسلامية على وفاق تام مع العائلات المسيحية الموجودة مثل آل ربيز وصوراتي وبسول وبخعازي وسواهم، وقد جرت العادة على أن ترضع نساء المسلمين أطفال المسيحيين والعكس بالعكس حتى يتآخى أطفال الطائفتين بالحليب.

وفي حين أتيح لأهالي زقاق البلاط وعين المريسة وميناء

الحصن مثلاً أن يختلطوا بالأجانب، وأن يأخذوا بأسباب الحضارة، حسب مفاهيم تلك الأيام، فقد عاش أهالي رأس بيروت في عزلة، طيلة أجيال، عن سكان سائر الأحياء البيروتية، ولا سيما قبل إنشاء الجامعة الأميركية، لذلك اختلفت عاداتهم وتباينت لهجاتهم عما هي عند أولئك، ولهذا استساغ البيارتة أن يشنعوا على أهالي رأس بيروت وأن يتهموهم بالغباء.

ومن أطرف ما ذكر في مجال «المباسطات» الشعبية أن أهالي رأس بيروت كانوا يهبطون إلى المدينة صباحاً، والشمس في وجوههم، لبيع منتوجاتهم وقضاء حاجاتهم، ويرجعون عند العصر والشمس كذلك في وجوههم. فظنوا أن الشمس تعمل عمداً على مشاكستهم ومعاكستهم، وقدّموا إلى والي بيروت عريضة يطلبون منه فيها تغيير مواقع شروق الشمس وغروبها.

«العيتانية» أخت الرجال

هذا وتحفل المجتمعات القديمة من أهالي الحي بالقصص والطرائف والأساطير.

ومن أجمل هذه القصص أن القائد المصري إبراهيم باشا جاء في أحد الأيام يتفقد حي رأس بيروت، وإذا بامرأة من آل العيتاني تصعد إلى إحدى المآذن وتشرع بالآذان.

فذهل إبراهيم باشا واستنكر الأمر، وأمر بإنزال المرأة

وإحضارها، وعندما سألها عن سبب إقدامها على هذه البدعة أجابت: «لقد استوسقتم رجالنا وسقتموهم جنوداً في جيشكم ولم يبقَ منهم من يقوم بهذه المهمة».

فسألها: «ومَن لكِ عندنا؟» قالت: «زوجي وابني وأخي» فأمر الباشا بإحضار هؤلاء، وقال لها: «اختاري أحدهم نردّه لك».

فأمسكت المرأة بكم أخيها وقالت: «رد لي أخي يا سيدي».

فسألها: «ولماذا اخترتِ أخاك دون زوجك وابنك» قالت: «الزوج موجود، والابن مولود، أما أخي فإن مات فلن يعود»، فأمر برد الثلاثة معاً إليها.

الله أكبر على كل من طغى وتجبر

يذكر شيوخ رأس بيروت أن خندقاً عريضاً كان ينحدر من غربي مكان بناية منقارة في شارع مدام كوري وينتهي مكان محلات تقلا حالياً في شارع الحمرا، اسمه خندق ذيبو.

في ذلك الخندق كانت تعيش الحيّات المتعددة الأشكال والأجناس، ومنه تتسلل إلى البيوت المجاورة، فتحرم سكانها لذّة النوم، إلى أن يحضر أحد الحواة فيحويها ويطردها خارجاً.

يقول أحد شيوخ الحي إن والده وعمه اشتبها بوجود حيات في منزليهما فاحضرا حاوياً اسمه الحاج حسين من قرية الصرفند ليتفقدهما.

فدخل أولاً إلى منزل والد الراوي وأخذ يتنسم معالمه. ولم يلبث أن حكم بعدم وجود حيات فيه.

ثم انتقل إلى منزل عمه وسرعان ما قال: «عندكم حيّة يهودية - كذا - تكلف حوايتها أربعة «بَشالِك» على المسوكر».

ثم أخذ الحاوي بتلاوة بعض الآيات وبترديد بعض التمتمات، فلم يظهر للحية أي أثر، فانتهرها عندئذٍ قائلاً: «إخرجي يا زهيّة» - كذا - وإذا بحيّة تطلّ برأسها من أحد الشقوق وتلبلب بلسانها علامة الرفض والإصرار. فطلب منها ثلاث مرات أن تنزل وتخرج من البيت وعندما رفضت صرخ بصوت مرتفع: «الله أكبر على كل ما طغى وتجبّر»(١) وتقدم وقبض على عنق الحية وسحبها والقاها خارجاً.

الراقي قبل الترياق

حدث أن فتى من أبناء رأس بيروت لدغته أفعى في تلك

---

(١) جاء في كتاب المستطرف في كل فن مستظرف للشيخ شهاب الدين الأبشهي، ما يلي: «وأمر النبي ﷺ بقتل الحيات، بعد أن تُنذر ثلاث مرات، وقيل ثلاثة أيام، وأما سكان البيوت فالإنذار لها متعين، وفي الحديث من قتل حيةً فكأنما قتل مشركاً».

الأيام، فبادر ذووه حالاً إلى استدعاء «الراقي» ليرقيه، حسب مقتضيات ومفاهيم ذلك الزمان(١).

وعندما علم العلامة الدكتور «فان ديك» بالأمر أخذته الحمية، فسأل عن بيت الفتى الملدوغ وذهب يعوده، فوجد بجانبه رجل غريب الزي يمسك بيديه بعض التمائم والتعاويذ المتنوعة وقد أخذ «يبسمل» و«يحمدل» ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

في تلك الأيام كانت شهرة «فان ديك» قد اتسعت وعمّ فضله بين الناس، لذلك، عندما علم ذوو الملدوغ ان القادم الغريب هو فان ديك، توسلوا إليه أن يفعل ما بوسعه لكي ينقذ حياة ابنهم.

فسألهم فان ديك عما فعلوه للفتى على الفور، أجابوا: «ربطنا ساقه الملدوغة وسقيناه كمية من الحليب النيء وأحضرنا هذا الراقي ليرقيه والشفاء على الله».

---

(١) جاء في كتاب المستطرف المذكور ما يلي: «إذا لدغ أحد فاقرأ عليه هذه الكلمات وهي: «سلام على نوح في العالمين وصلى الله على سيدنا محمد في المرسلين، من حاملات السم أجمعين، لا دابة بين السماء والأرض إلا ربي آخذ بناصيتها، كذلك يجزي عباده المحسنين، إن ربي على صراط مستقيم، نوح قال لكم من ذكرني لا تلدغوه إن ربي على كل شيء عليم» - والسر في ذكر نوح دون غيره هو انه لما ركب في السفينة سألته الحية والعقرب أن يحملهما معه فشرط عليهما أنهما لا يضران من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك».



الدكتور كرنيليوس فان ديك
طبيب وعالم أميركي عاش ومات في بلادنا

فتناول فان ديك من جيبه دواءً خاصاً وقال: «فعلتم وجه الصواب، إنما بالإضافة إلى كل ما فعلتموه يُستحسن إعطاء هذا الدواء إلى الفتى لأنه يسهّل عملية الرقي هذه بإذن الله».

«إذا كنت في يقظة لا في منام فأنت عيسى ابن مريم عليه السلام»

في الجزء الثاني من القرن الماضي، وفي مطلع القرن الحالي، دخلت الجامعة الأميركية في حياة رأس بيروت وتداخلت في شؤون سكانه، فصاروا يقولون: فان ديك، وبوست ودورمان، كما يقولون: الياس ربيز ومصطفى شاتيلا وأحمد علي العيتاني.

إلا أن الدكتور بوست، أو «بسط» - بلغة أهل الحي - فاق زملاءه أجمعين، بنظر الناس، فحاكوا حوله الأساطير، كما تفعل الشعوب غالباً بعظمائها.

وربما كان الدكتور بوست هو أوّل جرّاح ماهر عرفته بلادنا، يشق بطن المريض ويخرج البحصة من مرارته أو الدمل من مثانته مثلاً، في حين اقتصرت مهمة «فان ديك» على جس النبض «ودس» البطن وما أشبه ذلك، مما لا يشبع خيال ولا يثير فضول.

يروي بعض معمّري رأس بيروت، ان شاباً أصيب بألم

مفاجىء ولفظ أنفاسه بسرعة فدفنه ذووه.

وجاء من أخبر الدكتور بوست بما حدث، فارتاب بالأمر وأرسل ثلاثة من رجاله، تحت جنح الظلام إلى حيث دفن الشاب، فاختطفوا جثته وجاؤوا بها إليه.

فشق بوست بطن الشاب واستأصل مصدر العلة وأعاد كل شيء على ما كان عليه، فدبت الحرارة مجدداً في جسم الشاب ولم تبرح الحياة أن عادت إليه، فاستبقاه عنده إلى أن شفي تماماً.

وبعد مرور أربعين يوماً على الحادث، أرسل بوست وراء والد الشاب فحضر وجلس إليه، وإذا بشاب يلبس الزي الإفرنجي وعلى عينيه عوينات سوداء، يدخل ليقدم القهوة إلى الرجل، فحملق الرجل بابنه وعرفه فجمدت يده على فنجان القهوة، ثم التفت إلى بوست وقال: «إذا كنتُ في يقظة لا في منام فأنت هو سيدنا عيسى عليه السلام»، وقد فعلت بابني كما فعل سيدنا عيسى بـ «لعازر الصديق».

حصان الدكتور بوست أحكم من صاحبه

ولكن الدكتور بوست، كما يقول الرواة هو بطل قصة أخرى معروفة، وهي أنه دعي يوماً إلى وليمة عند أحد المواطنين، وبعد أن أكل وشبع أخذ الحاضرون «يتعازمونه»:

«قرص كبه منشاني، محشاية كرمال خاطري، الأكل على قدّ المحبّة».

فسايرهم بوست مكرهاً، ومن قبيل المجاملة، فأكل أكثر من طاقته وشعر بتلبك شديد فاستأذن.

وعندما جيء إليه بحصانه ليركبه قال: «أظن حصاني ظمآن، فهل من يأتيني بسطل ماء، فاحضروا سطل ماء وضعوه أمام الحصان فشرب حتى شبع ورفع رأسه».

فأخذ بوست عندئذٍ يقول لـه: «إشرب قليلاً كرمال خاطري، «غبّه» ثانية منشاني»، فأبى الحصان مسايرة صاحبه.

عندئذٍ قال بوست للحاضرين: «حصاني أحكم مني لأنه رفض أن يضر نفسه إكراماً لخاطر سواه»[1].

بركات ربيز يتكفّل بطائفة الجان

يقول أحد المعمّرين إن خندق ذيبو المارّ ذكره كان مأهولاً بالجان، إلا أنهم كانوا لا يأذون أحداً، وقد انقطع خبرهم بعد انتشار الكهرباء في المدينة لأن الجان لا يعيش إلاّ في الظلام ـ كذا ـ

ومن طرائف الأخبار أنه عندما شرع الأميركيون بتأسيس

(١) ينسب البعض هذه الحكاية إلى الدكتور فان ديك.

الجامعة الأميركية سنة ١٨٦٦ ارتاب بعض أهالي الحي بأمرهم وأقبلوا يستطلعون الحقيقة.

ولعلهم أرادوا تثبيط عزيمة الأميركيين، فأخذوا يسردون أمامهم أخبار الوحوش الكاسرة والحيّات السامة الموجودة في ذلك المكان، والتي لا يسلم من شرّها أحد، بالإضافة إلى طائفة من الجان كثيراً ما تظهر عارية في ضوء القمر وتعتدي على عابري السبيل.

فقال أحد الأميركيين ـ ربما دانيال بلس مؤسِّس الجامعة: «بخصوص الوحوش والحيّات نحن نتكفل بالقضاء عليها فنتخلص ونخلّصكم منها، أما طائفة الجان التي تحدثتم عنها فأنتم أدرى بأمرها، ويرجى أن تجعلوا لنا سبيلاً للتفاهم معها».

ويقال إن رجلاً من آل ربيز كان يتعاون يومئذٍ مع الأميركيين ـ ربما كان بركات ربيز الذي عرف بالذكاء وبعد النظر ـ أضاف على كلام بلس مستطرداً: «وأنا أتكفل بطائفة الجن».

مسيرة فرح واعتزاز

بالإضافة إلى الوحوش الكاسرة والحيّات السامّة وإلى طائفة الجن المتعرية في ضوء القمر، فقد كان للثعالب وبنات آوى وجود وأثر في المنطقة، فأقنان الدجاج لم تكن تسلم

أحياناً من شرّها، وكان عِواؤُها الحادّ المتنافِر يُزعِج أطفال الحي في مخادعهم.



دانيال بلس مؤسس الجامعة
الأميركية في بيروت ومعاونوه

فبنات آوى كما هو معروف تؤلف جوقات عوائية وتسير جماعات في طلب الرزق، فإذا عوى أحدها أخذت جميعها بالعواء، ولكن على طبقات صوتية متباينة من حيث الارتفاع والانخفاض، فيأتي عواؤها متنافراً وكريهاً يمجّه الكبار ويخاف منه الصغار.

وحدث أن طلب المرسلون الأميركيون، في منتصف القرن الماضي، من الشيخ ناصيف اليازجي أن ينظم لهم بعض الترانيم العربية، ولكن على ألحان وأوزان غربيّة تصلح للأجواق الغنائية وتضم غالباً طبقات صوتية مختلفة: «التو، سوبرانو، باس».

وبما أن آذان الشرقيين في ذلك الزمان، لم تكن قد أَلِفَت ما يسمى بالهارموني الموسيقية، لذلك قال الشيخ ناصيف: «عندنا أوزان شعرية عربية جميلة ننظم لكم ترانيمكم عليها إذا أردتم، وما لنا ولهذه الألحان التي تشبه عواء بنات آوى في ليالي الشتاء». فجرت عبارة الشيخ اليازجي مجرى الأمثال.

وحدث بعد ذلك، ربما بسنوات عديدة، إن الشيخ إبراهيم الحوراني - الذي اعتنق المذهب البروتستنتي كما هو معروف - كان يسهر في أحد بيوت رأس بيروت مع جماعة من علماء وشعراء ذلك الزمان، فإذا بشرذمة من بنات آوى تطرق الحي وتأخذ بالعواء، فقال أحد الحاضرين، وكان من الشعراء المعروفين: «حضروا جماعتك يا شيخ إبراهيم».

فانتبه الشيخ إبراهيم إلى أن كلاب الحي أخذت بدورها تنبح، فأجاب على الفور: «ولكن جماعتك تصدّوا لهم واسكتوهم».

وممّا يبرّر ذكر هذه القصة دلالتها على أن جماعة العلماء والمفكّرين تتحلّى غالباً برحابة الصدر ورجاحة العقل بالإضافة إلى خفّة الدم وسرعة الخاطر، ولكي تتم بفرح واعتزاز مسيرتنا هذه من معبور بيت الحمرا إلى أضواء شارع الحمراء، ومن خندق ذيبو إلى أجواء الجامعة الأميركية.

ومن العلم ما قتل

طلب الشيخ ناصيف اليازجي يوماً من خادمته أن تأتيه بقنينة النبيذ، فجاءته بها وقالت له: «هاك القنينة»، ولفظت «قاف» القنينة مفتوحة، فصاح بها «اكسريها»، فألقت القنينة من يدها وكسرتها، وكان الشيخ اليازجي، إنما يريد منها أن تكسر «قاف» القنينة لا القِنينة نفسها.

«إشْترِ حماراً يَصِرْ عندك حماران»

من القصص المنسوبة إلى العلاّمة الدكتور فان ديك، أن رجلاً أراد أن يعلم ابنه في الجامعة الأميركية في بيروت - الكلية السورية الإنجيلية في ذلك الوقت - فطلبت منه إدارة الكلية رسماً مدرسياً مقداره خمس ليرات عثمانية.

وكان الرجل يعرف فان ديك أو يسمع بفضله، فقصده طالباً منه أن يتوسط له من أجل تخفيض قيمة الرسم، قائلاً إنه لا يقدر أن يدفع المبلغ المطلوب.

فقال فان ديك إن الرسم ليس باهظاً، فصاح الرجل: «ولكنني أستطيع، يا سيدي، أن أشتري بهذا المبلغ أحسن حمار في هذه البلاد»، فقال فان ديك بكل هدوء: «عندئذٍ يصير عندك حماران».

ومن القصص المنسوبة كذلك إلى الدكتور فان ديك: إن خادمه تذمّر يوماً من كثرة الأشغال المطلوب منه تحضيرها، بمناسبة إحدى الحفلات، وأخذ يعدها: «طاولات ومأولات، كراسي ومراسي، صحون ومحون» فقاطعه فان ديك قائلاً:

«كفى، إني سأعفيك من نصف هذه الأشغال، أحضر أنت الطاولات والكراسي والصحون، وأنا أتولى بنفسي إحضار المأولات والمراسي والمحون».

وكنت قد سمعت من المعلم مخايل البستاني، أن الدكتور فان ديك هو أول من استعمل الشمسيّة في بلادنا، وهو الذي أطلق عليها هذا الاسم، فقد حملها يوماً إلى قرية عبيه، وكان الطقس حاراً، فرفعها فوق رأسه، وعندما وصل إلى مكان ظليل طواها فصارت عصا يتوكأ عليها. فدهش الحاضرون لهذا الاختراع العجيب الغريب وسألوه عن اسمه، فقال فان ديك على البداهة: «شمسيّة».

هذا ولا نعلم الآن، متى دخلت الشمسية إلى مصر، حيث أطلقوا عليها اسم «مظلّة»، وكلّ ما نعلمه الآن هو أن الخديوي عبّاس في مطلع القرن الحالي، كان يتنزّه يوماً وبرفقته شاعر بلاطه، أمير الشعراء أحمد شوقي وكان الحر شديداً فتضايق أمير الشعراء من حدة الشمس وما كان من الخديوي إلا أن أهدى إليه مظلته، فقال شوقي بالمناسبة:

«مولاي عباس أهداني مظلّته
يظلّل الله عباساً ويرعاه
مالي وللشمس أخشاها وأرهبها
من كان في ظلّه فالشمس تخشاه»

مع العلم أن الدكتور فان ديك جاء إلى بلادنا سنة ١٨٤٠ وأقام فيها طبيباً ومعلّماً ومؤلّفاً ومترجماً طيلة أيام حياته، وقد مدحه الشيخ ناصيف اليازجي بقصيدة منها هذه الأبيات:

«فتىً يلهو العليل إذا أتاه
به عما أصيب فما أطاقا
فيوشك أن يخاف فراق سقم
مخافة أن يذوق له فراقا
فان رقّ الطبيب وراق معنىً
رقت حال الهوى ورقى وراقا»

الطعام نصفه يقيت ونصفه يميت

يروي القس الدكتور فريد عودي أنه جلس يوماً، في إحدى المناسبات، قرب الشيخ رشيد حمادة، شيخ عقل الدروز السابق، فلاحظ أن سماحته شرب نصف كوب «الليموناضة» وترك الباقي، وعندما جيء إليه بصحن من الحلوى، تناول كذلك، نصف ما كان فيه وترك الباقي، وهكذا فعل بالقهوة فشرب نصف ما كان في الفنجان وترك الباقي، فسأله عن السبب، فأجاب: «الطعام نصفه يقيت ونصفه يميت».

عندما يكون الحمار «حماراً»

لعشرين سنة خلت كان أكثر أهالي جبل عامل يشربون من مياه البرك، ويسقون مواشيهم منها، وكانت كل بركة عبارة عن بحيرة اصطناعية صغيرة بجانب كل قرية تتجمع فيها مياه الأمطار والسواقي لتأمين مياه الشرب لأهالي القرية ومواشيهم حتى مطلع الشتاء المقبل.

ومن المشاهد المألوفة التي كان يشاهدها المار بجانب أية بركة من تلك البرك، عدد من صبايا القرية يملأن جرارهن برفق، فيما جلست على حافة البركة إحدى النساء تغسل الثياب وأخرى تجلي الصحون، وبضعة أطفال يلعبون بالوحل، وعدد من الحمير تقف وعلى ظهورها قناتل وجرار، بالإضافة إلى بعض المواشي وقد تجاوزت حدود البركة قليلاً لتشرب من مياهها، وتتصرف فيها على سجيّتها، ولم يكن في ذلك أي حرج، إذ لم يكن بالإمكان أفضل مما كان.

في ذلك الوقت انضم شاب من إحدى قرى الجنوب إلى جمعية الرفق بالحيوان، وأخذ يطوف في قرى المنطقة داعياً إلى

تحسين معاملة الحيوانات، كتخفيف أعباء الحمير وتقليل ساعات عمل الثيران وما أشبه ذلك.

وكان إذا حظي بكلب يتسكع من ضربة حجر على رجله تناوله بها أحد صبيان القرية، قام صديقنا هذا بأخذ صورة الكلب الأعرج، ونظّم عنه تقريراً رفعه بالتسلسل إلى مقر جمعية الرفق بالحيوان في بلاد الأميركان. ثم وسّع منطقة عمله شطر جبل عامل، فزار إحدى قراه في أحد الأيام، وتوجّه إلى بركة القرية حيث كان من المفروض أن يجد عدداً من الأهالي.

وفيما أخذ يُحدِّث الحاضرين عن مبادىء دعوته، «فَنْعَص» أحد الحمير، لسبب مثير، وأخذ بالنهيق والشهيق، فاحتدمت الحمير بالحمير، ودار اللبيط والخبيط، ووقعت أشياء أخرى منافية على نفس الوزن والقافية «بلا قافية» ـ فأسفرت المعركة عن تحطيم بعض الجرار والأباريق.

عندئذٍ هب بعض المتضررين إلى مطالبة صاحب الحمار بدفع قيمة الأضرار، فقال إن حماره غير مسؤول، لأنه سمع الأستاذ يتحدث عن حقوق الحمير، فثارت حميّته وحدث ما حدث، وعلى الأستاذ أن يتحمل كامل المسؤولية. فأطبق أهالي القرية عندئذٍ، على صديقنا المذكور، الذي جاء يفسد بينهم وبين حميرهم ـ على حد قولهم ـ فأرغموه على دفع ثمن الجرار والأباريق، بعد التحقيق.

وحدث ان صاحب الحمار كان شاعراً شعبياً، فأرخ واقعة الحال بقصيدة زجلية لم يحفظ منها ناقل الرواية إلينا، سوى البيتين التاليين:

شنهق حماري وثار
من كلمتين زغار
صدق حكي الأستاذ
ما أكد حماري «حمار

كرامة الحمار قبل كرامة صاحبه

حظيتْ يوماً دورية من رجال الدرك في منطقة النبطية برَجُل يفلح على ثور وحمار، فنظّمت بحقه «ضبط مخالفة»، لأن الحراثة على الحمار لا تجوز شرعاً، وهي مخالفة لقانون الرفق بالحيوان.

وتولى النظر بهذه القضية القاضي المنفرد في محكمة النبطية، فعين جلسة واستدعى الرجل لمحاكمته حسب الأصول.

وعندما دخل الرجل إلى المحكمة سأله القاضي عن سبب إقدامه على ارتكاب المخالفة المنسوبة إليه، وهي الحراثة على حمار، خلافاً للعرف والقانون، فقال بصوت متهدّج ونبرات متقطعة، إنه رجل فقير جداً وسيء الحظ وليس عنده إلا ثور واحد، لأن ثوره الآخر مات مؤخراً، وهو لا يملك أية دراهم لشراء ثور جديد، وقال إنه رب عائلة كبيرة وهو مسؤول عن معيشتها، لذلك اضطر إلى ربط حماره إلى جانب ثوره ـ وهما رفيقا عمل ـ للحراثة عليهما معاً، ولم يلاحظ أن الحمار تذمر

أو استنكر هذا العمل باعتباره أرفع قدراً من الثور وأنبل منه حسباً ونسباً.

فتأثر القاضي بكلام الرجل، ووجد نفسه في حيرة بين حرفية القانون وقوة الواقع: رجل فقير لم تفعل الدولة شيئاً من أجله، ولم تحاول أن تحافظ على حقه أو على كرامته، بل إنها تريد أن تحافظ على حق وكرامة حماره والحمار هو حماره، بل هو رفيق مصيره، فإذا حكمت المحكمة على الرجل بالجزاء النقدي، لأنه أهان كرامة حماره، فهذا يعني أن الرجل سيقتطع، لا جزءاً من ثمن طعام أولاده فحسب، بل من ثمن طعام حماره أيضاً، ليؤمّن قيمة الغرامة.

إذن، باسم الشعب اللبناني، حكمت المحكمة ببراءة هذا الرجل، حتى لا يقال إن المحكمة تحافظ على كرامة الحمار أكثر من كرامة صاحبه.

وذاع خبر هذه المحاكمة، وهذا الحكم الغريب، وتناقلته الألسن وعلقت عليه الصحف ما طاب لها التعليق، فنشرت إحدى المجلات صورة كاريكاتورية لحمار يقف على رجليه ويضع يديه على قوس المحكمة مطالباً بحقوقه المشروعة. وأشيع يومئذٍ أن القاضي المذكور استقال بسبب مضاعفات هذه الدعوى.

«فلأمت أنا وليعش لبنان»

سنة ١٩٣٧ ازدهرت أعمال جمعية الرفق بالحيوان، في بعض أنحاء لبنان وأخذ أعضاؤها يجوبون مختلف المناطق يوزعون المنشورات التي تدعو الناس إلى الرفق بسائر المخلوقات.

وحدث في تلك السنة أن أقيمت في مدرسة الحكمة في بيروت، حفلة تذكارية للشاعر المرحوم الشيخ أمين تقي الدين، كان في عداد خطبائها المطران أغناطيوس مبارك، الذي وقف، عندما جاء دوره للكلام، وقال، إنه يريد أن يرثي الأحياء في لبنان لا الأموات، لأن الأموات ماتوا واستراحوا.

ثم قال إن جمعية الرفق بالحيوان وزّعت تقريراً ذكرت فيه أنها عالجت في ذلك الأسبوع ٢٥ حماراً و٣٢ بغلاً و٤٥ حصاناً وغير ذلك، وقال: «بما أنه لا يوجد في لبنان من يهتم بالرفق بالإنسان لذلك قررنا أن نأخذ هذه المهمة على عاتقنا».

ودعا المطران مبارك إلى تأليف جمعية لهذه الغاية تكون مستعدة للتضحية واحتمال الاضطهاد والنفي إذا لزم الأمر، من أجل المحافظة على كرامة وشرف الإنسان في لبنان، واستشهد بكلمة يوحنا فم الذهب التي كان المطران بطرس شبلي يتغنّى بها في منفاه: «أحببت العدل وكرهت الإثم لذلك أموت في المنفى».

وطلب أخيراً من الحاضرين أن ينضمّوا إلى جمعية «الرفق بالإنسان» ويكونوا مستعدين للموت من أجل لبنان، وجعل شعار الجمعية كلمة يوسف بك كرم في منفاه «فلأمت أنا وليعش لبنان».

كل شيء على بابو بيشبه صحابو

المعروف أن الكولونيل الإنكليزي «شارل هنري تشرشل» جاء إلى لبنان وتزوج امرأة من الشهابيين ولبس العباءة والكوفية والعقال، فسماه اللبنانيون «شرشر بك» وكان ذلك بين سنة ١٨٤٠ و١٨٦١، وله مؤلفات عن الحياة في لبنان جاء في أحدها أن المصريين يتكلمون بطلاقة ويمشون بسرعة، وذلك يعود إلى طبيعة سهول بلادهم، أما سكان قرى جبل لبنان، فإنهم يتكلمون برزانة ويمشون بتؤدة، وذلك يعود إلى طبيعة جبالهم الموعرة وإلى مصاحبة الحمير والبغال في مسالك أوديتهم المتعرجة.

الكلاب رفاق مسيرتنا

اقتنى أحد الأثرياء كلباً من أشد أنواع الكلاب ضراوة وشراسة ليأمن شر اللصوص، ومع ذلك تسلل لص، في إحدى الليالي، إلى بيته وسرق بعض موجوداته. وحدث بعد مدة أن قبض على السارق فذهب الرجل إلى السجن وطلب مقابلة اللص ووعده بإسقاط دعواه عنه إذا هو أخبره كيف

استطاع أن يغافل الكلب ويجتاز الحديقة إلى المنزل ذهاباً وإياباً. فقال اللص إنه كان يأتي برغيف من الخبز، لعدة ليالٍ فيلقيه من خارج الحديقة إلى الكلب حتى صار بينه وبين الكلب «خبز وملح»، مع العلم أن الكلاب لا تخون الخبز والملح ولا تقيم علاقات مودة إلا بواسطة الخبز والملح.

ويضيف ناقل الرواية إلينا أن بعض الفلاحين والرعاة في لبنان ينسبون وفاء الكلب وشدة إخلاصه للإنسان إلى رابطة الخبز والملح، لأن الإنسان يطعم هرته مثلاً لحماً وحليباً وفرسه تبناً وشعيراً وثوره باقيةً وكرسنةً، أما الكلب فيقاسمه رغيفه، ولذلك توثقت، مدى الدهر الطويل، روابط الخبز والملح، بين الكلب والإنسان.

ومع أننا، نحن الشرقيين، نعرف أن الكلب هو صديقنا ورفيقنا الأمين، إلا أننا مع ذلك نعتبره حيواناً نجساً وننظر إليه بازدراء، فما هو سبب القول بنجاسته؟ كتاب «إنجيل برنابا» يجيب على هذا السؤال، مع العلم أن إنجيل برنابا هذا أصبح في حكم المفقود، أو أنه صار نادر الوجود.

... وأبناء جبلتنا

يقول إنجيل برنابا إن الله تعالى، بعد أن خلق جميع المخلوقات، فكر بخلق الإنسان، فجبل في وسط جنة عدن، كتلة من الطين، صنعها على صورته ومثاله، لينفخ فيها من

روحه فتصير إنساناً سوياً تسجد له جميع المخلوقات حتى الملائكة.

وأدرك الشيطان، الذي كان ملاكاً ثاقب النظر، ما يجول في خاطر الله عز وجل، فدنا إليه واعترض لديه على مبدأ سجود الملائكة للإنسان ابن التراب، لأن الملائكة أرواح، والأرواح لا تسجد للمادة، فغضب الله على الشيطان ولعنه وطرده من الجنة. وفيما هو منصرف مر بقرب جبلة الطين المعدّة لكي تصير إنساناً فبصق عليها وخرج.

فاقترب الملاك جبرائيل من جبلة الطين المصنوعة على شكل إنسان، وانتزع منها القسم الملوث ببصاق الشيطان ووضعه جانباً، فبقيت في مكان هذا القسم فجوة صغيرة، هي صرة الإنسان التي ما زالت موجودة على بطون بني آدم إلى يومنا هذا.

أما الشيطان الذي أصبح، منذ تلك الساعة، عدواً لدوداً للإنسان، لأنه خسر الجنة بسببه، فقد أراد أن ينتقم من جبلة الإنسان، وتقدم من خلف أسوار جنة عدن، حيث كانت الفرس ترعى وحدها، وقال لها: «انظري إلى تلك الجبلة من التراب، في وسط الجنة، فإن الله يريد أن يصنع منها مخلوقاً مميزاً على سائر المخلوقات، وسيمنحه حق الركوب على ظهرك واستعبادك إلى الأبد، لذلك أنصحك أن تجري راكضة في الجنة، حتى إذا ما اقتربتِ من جبلة الطين تدوسينها بحوافرك

وتذرّينها في أرجاء الجنة وتفسدين بذلك على الله خطتّه المبيتة

إلا أن الله، سبحانه تعالى، وهو العليم بخفايا الأمور، أدرك ما تدبر في الخفاء، بشأن الإنسان العتيد فتناول قطعة الطين الملوّثة ببصاق الشيطان، والتي انتزعها الملاك جبرائيل من جبلة الإنسان، فجعلها حيواناً جديداً، هو الكلب الذي ما أن دنت الفرس من جبلة الطين، حتى هب مدافعاً عنها نابحاً في وجه الفرس التي أجفلت وولّت هاربة، ولم تصب جبلة الإنسان بأذى.

وهذه القصة، كما يبدو، مغايرة لقصة الخليقة كما جاءت في الكتب المقدسة، إلا أنها على طرافتها، تلقي ضوءاً على سبب اعتبار الكلب حيواناً نجساً، لأنـه مخلوق من تراب مدنّس ببصاق الشيطان.

أما سبب إخلاص الكلب للإنسان ـ استناداً إلى إنجيل برنابا ـ فيعود إلى كون الكلب مخلوق من جبلة جدنا الأول، عليه السلام، ولعل عداوة الكلب للفرس ما زالت تحيا في مخيّلته فيحاول تجفيلها بالنباح كلما مر طيفهـا أو لاح. أما الفـرس، فهل تُـرى ما زال وسـواس الشيطان الخنّـاس في ذاكرتها، حتى انها كلما أجفلت ألقت الإنسان عن ظهرها أو تناولته بحوافرها.

القِسْم الثَاني

تاريخنَا الوَضّاء سيوف دولة وشعراء

بعد القضيه معلّقه

في أواخر القرن الماضي، لمعت في المجتمع اللبناني، زعامات شعبية مشرقة، ونهض إلى جانبها شعراء زجل يتغنّون بأمجادها: بطولات ومواقف عز، سيوف دولة ومتنبّون، وقد كان نسيب بك جنبلاط سيف دولة زمانه.

كان سيد دار المختاره وحفيد الشيخ بشير جنبلاط «عمود السما» ـ كما لقبه ابناء ذلك الزمان ـ وكان، بالإضافة إلى ذلك، زعيم الحزب الجنبلاطي، عندما كان الخلاف بين الحزبين اليزبكي والجنبلاطي في ذروة احتدامه.

بالمقابل كان آل نكد، أو بيت بو نكد ـ بلغة أهل الشوف ـ من أصحاب الزعامات والكرامات، وقد تغنّى بهم أحد شعراء الزجل في تلك الأيام، فجمع فيهم أنبل مفاخر اللبنانيين قال:

«عِنّا مشايخ بو نكد بيّاتهم وجدود
للضيف والسيف وغدرات الليالي السود

الجيره عند شيخ العشيرة بشير مشكي الضيم

والـراي مدوم مـا انعقد إلا لبـو حمّود»

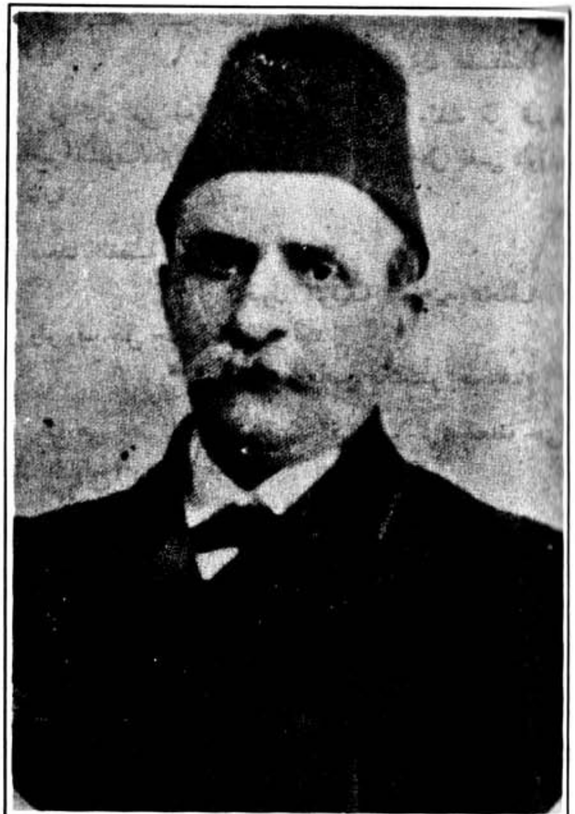
وبالاضافة إلى كون آل نكد من أركان الحزب اليزبكي فقد كان بينهم وبين آل جنبلاط ثارات دفينة، لم تكن الأيام حتى ذلك الوقت، قد أخمدت جذوتها.

وحدث يوماً أن أقيم في بعقلين، عرس لأحـد سراة اليزبكيين، من آل تقي الدين حيث احتشد عدد كبير من الشعراء والمغنين، قيل كانوا أربعة وعشرين ـ لا اكراماً للقافية بل للثقات العارفين ـ الذين يؤكدون أن واحـداً فقط من هؤلاء الشعراء كان جنبلاطياً، هو «شديد المزرعة»، في حين كان أكثر الباقين من اليزبكيين ـ لا بأس أن عدنا إلى القافية ـ فالحديث في بيت آل تقي الدين وهم من فرسـان القوافي المجلّين.

وحميت سوق عكاظ المعنّى عند أهل الشوف، على نقر الدفوف، واصطكّت السيوف بالسيوف ولا سيوف، ولاحت تباشير النصر للشعراء اليـزبكيين لكثـرة عدد المغنـين فيهم والمتحمسين، وإذا «بشديد المزرعة» ـ ولعله من مزرعة الشوف ـ ينقر على دفه ويقول:

«لا بد ما كاس الصفا يصفالها

ويخوض مهرك يا نسيب مجالهـا



نسيب بك جنبلاط
سيف دولة زمانه

دار البناها بشير عامود السما
عارٌ عليكم تنكرون فضالها»

فما كان من أحد الشعراء اليزبكيين، ولعله من قرية معاصر الشوف، إلا أن نقر على دفه وقال على نفس الوزن والقافية:

«بعدا القضيه معلّقه وما زالها
خيول الوقيعه مرجمه بمجالها
ولو رف ظل جناح قاسم بو نكد
فوق المعاصر تكتكتلو حجالها»

فما هي إذن تلك القضية التي كانت لا تزال معلقة حتى ذلك التاريخ؟

للياقة حدود

في مطلع القرن الماضي، كان مقر آل نكد في دير القمر، قبل جلاء الدروز عنها اثر حوادث ١٨٦٠ المشؤومة، وكان زعيمهم آنذاك الشيخ بشير النكدي. في نفس الوقت كان الشيخ بشير جنبلاط، بحكم صداقته مع الأمير بشير الشهابي، أقوى زعماء الشوف على الاطلاق.

وحدث أن اجتمع في ذلك الزمان جمع من زعماء الدروز في دير القمر، كان أكبر الحاضرين سناً الشيخ بشير النكدي،

واصغرهم سناً الشيخ بشير جنبلاط، وحينما تعازموا على الدخول إلى مكان الاجتماع، قال الشيخ بشير جنبلاط للشيخ بشير النكدي، وذلك من قبيل اللياقة: «تفضَّل يا عمّي الشيخ»، فما كان من الشيخ النكدي إلا أن دخل أمام الشيخ الجنبلاطي.

فاستاء الشيخ الجنبلاطي لأن الأولوية لابن جنبلاط في مثل هذه الحالة، ويذكر مؤلف كتاب «الحركات في لبنان» أن الأمير بشيراً الشهابي استغل هذه الحادثة لتوسيع شقة الخلاف بين العائلتين، ويشير المؤلف إلى أن محمد علي باشا، والي مصر، هو الذي نصح الأمير بشيراً بإلقاء بذور الشقاق بين الدروز ليتسنَّى له الإيقاع بمن يضمر له منهم الشر.

ويضيف المؤلف أن الأمير دبّر مكيدة لإهلاك آل نكد، فدعا زعماءهم وكانوا أحد عشر شيخاً، إلى قصره، حيث مكّن الشيخ بشير جنبلاط ورجاله من الدخول على النكديين والفتك بهم جميعاً.

الشوف بيحملش بشيرين

هكذا قضي على البشير النكدي، وعلى بعض زعماء آل نكد واستتب الأمر مدة من الزمن للبشيرين الآخرين: الشهابي والجنبلاطي، إلا أنه حدث بعد عدة سنوات، كما جاء في مذكرات رستم باز، أن هبطت إلى صيدا وفود عديدة

من الشوف للترحيب بعودة الأمير بشير من مصر ولمواكبته إلى بيت الدين.

وكان الشيخ بشير على رأس تلك الوفود، فما كان منه، إلا أن سار بجواده قدّام الأمير، على طريق العودة إلى بيت الدين، مظهراً للناس ما هو عليه من عظمة وسلطان.

فاغتاظ الأمير وكظم غيظه حتى وصل الموكب إلى مفرق المختارة، فناداه قائلاً: «يا شيخ بشير، درب بيتك من هون».

فأدرك الشيخ بشير حالاً أن نهايته قد اقتربت، وقفل مع جماعته إلى المختارة، في حين أكمل الأمير سيره على رأس الموكب إلى بيت الدين.

ولم تمض سوى أيام قليلة حتى أعلنت الحرب بين البشيريين، فجاء من يذكّر الأمير بشيراً بصداقة سميّه الجنبلاطي وموآزرته له على انتزاع الإمارة، من عمه الأمير يوسف، فقال: «الشوف بيحملش بشيرين، فإمّا بشير شهاب وإمّا بشير جنبلاط» فجرت كلمته مثلاً إلى يومنا هذا.

ومما يذكر في كتب التاريخ أن الشيخ بشيراً هرب من وجه الأمير إلى عكا حيث فتك به واليها بناء على طلب الأمير.

هبي ريحَ الجنة

المعروف أن آل الفاعور، أمراء عرب الفضل في الجولان والملقبون «بآل قطر الندى» هم من أشرف سادات العرب وأعرقهم نسباً، لأنهم يرتقون بحسبهم إلى الخلفاء العباسيين ويمتون بنسبهم إلى الرسول الكريم.

والمعروف كذلك، أن الأمير محمود الفاعور، كان قد أعلن الثورة على الافرنسيين، في بداية عهد الانتداب، وذلك تأييداً لنسيبه الملك فيصل الهاشمي، الطامع بعرش سوريا في ذلك الزمان.

وكان الافرنسيون قد جرّدوا حملة قوامها فرقة من الجنود المغاربة المعروفين باسم «سبيّس»، لإخماد ثورة الفاعور، وكانت الفرقة المذكورة قد استقرّت في مرجعيون بضعة أيام، قبل مواصلة زحفها إلى الجولان.

وبالرغم من تجهّم أجواء المنطقة، يومئذ، بغمام الطائفية، فقد حافظ بعض وجهاء جديدة مرجعيون على صفاء عروبتهم، وعلى صداقتهم للأمير محمود الفاعور، وأشيع في

تلك الأيام بأن أحد هؤلاء اتصل سراً بالجنود المغاربة، فأسرَّ إليهم، بأن آل الفاعور هم من آل البيت النبوي الشريف، وأنهم يحاربون من أجل الإسلام، وأن اطلاق النار عليهم من قبل أي مسلم هو جريمة تفضي به إلى جهنم وبئس المصير.

وفي اليوم التالي واصلت الحملة زحفها، فاصطدمت بجماعة من عرب الفضل، في موقع «الحماري» قرب قرية «آبل القمح»، وعندما أعطى الضباط الافرنسيون أوامرهم بإطلاق الرصاص، نكّس الجنود المغاربة بنادقهم واستنكفوا عن إطلاق النار، لأنهم فضّلوا خسارة المعركة على خسران الجنة إن هم أقدموا على قتل أي رجل من آل البيت.

أما عرب الفضل فقد استبسلوا في تلك المعركة وحاربوا بكل ضراوة واستطاعوا أن يبيدوا معظم أفراد الحملة من الجنود المغاربة الذين ماتوا وهم يستنشقون عبير الجنة.

وهكذا سجل التاريخ انتصاراً باهراً لعرب الفضل تحدّث الناس عنه سنوات عديدة، وحتى عندئذ لحبيب نمور أن يقول في مدح الأمير محمود الفاعور:

«علوتَ متن السُّهى فضلاً ومكرمةً
وسيف عزمك ماضٍ وهو مغمودُ
لئن تزيّنُ منك الصدرَ أوسمةٌ
فإنما فيه كل «الفضل» محشودُ
«قطر الندى» زان قولاً فيك مجمله
بالاسم والفعل بين الخلق «محمودُ»

الاعتبار والاستعبار عن كلب المستشار

عندما كان حبيب باشا السعد رئيساً للجمهورية دخل عليه مستشار الجنوب القومندان باتشكوف فوجد عنده قائمقام جزين المرحوم أمين الخوري، وبادره بقوله: «ماذا جئت تفعل هنا وبدون معرفتي؟». أجاب: «إن فخامة الرئيس هو نسيبي وقد جئت أزوره بصفة شخصية». فقال باتشكوف: «معك ساعة وربع الساعة فقط لتكون في جزين، وإلا اعتبرت مصروفاً من وظيفتك».

ومما يذكر أن القومندان باتشكوف كان يقتني كلباً «ابن أصل» يفهم بلغته ويفعل حسب مشيئته. وقيل إنه كان يحتقر الناس ويستعلي على رجال السياسة، فإذا جاء أحدهم يلتمس حاجة منه، نادى كلبه ثم أمره أن يذهب، ثم عاد وناداه إليه، ثم يأمره أخيراً أن يجلس في إحدى الزوايا، وكان الكلب يمتثل صاغراً لإرادة مولاه. وقد أوّل بعض الجنوبيين هذه التصرفات تأويلاً سيئاً فانقطعوا عن زيارة المستشار.

هذا ويؤكد السيد لويس نور - الذي شغل أمانة سر

القومندان باتشكوف طيلة وجوده في الجنوب - حادثة القائمقام، إلا أنه ينفي قصة الكلب، ويقول إن أهل الجنوب تجنّوا على باتشكوف، مع إنه كان مترفعاً وصادقاً في علاقاته الشخصية.



القومندان باتشكوف وكلبه

باريز مَربَط خيلنا

يقول أحد الظرفاء إن «البلاغة» مشتقّة من «المبالغة»، والله أعلم، فنحن اللبنانيين خاصةً، والعرب عامةً، لا تُرنّح أعطافنا البلاغة إلا إذا توشّحت بالمبالغة، ومن أشهر قصائدنا الحديثة قول أحد كبار شعرائنا يرثي سعد زغلول:

«قالوا دهت مصر دهياءُ فَقلت لهم
هل غيّض النيل أم قد زلزل الهرمُ
قالوا أشدّ وأدهى، قلت وَيحَكمُ
إذنْ لقد مات سعدٌ وانطوى العلمُ»

ومنذ سنوات قليلة خلت طاف نهر بيروت فهدم جسر الباشا، وحدث في تلك الأثناء أن مات أحد أبناء حي جسر الباشا، فالتأمت حلقات الندب وإذا بالشاعر الشعبي خليل روكز يقول نادباً:

«عندما الناعي نعاني
قلت هبّط جسر تاني

وفـاض نهر الـدمـع منـا
وطـاف عـامـروج الأمـاني

ولكن لعل أشهر مبالغاتنا الشعبية، حتى لا نقول أبلغها، كانت ردّة علي هيدوس، تأييداً للزعيم عبد اللطيف بك الأسعد، ضد المستشار الافرنسي المشهور «باتشكوف» وهي:

«بـاشكـوف خبّـر دولتـك
سلطاننـا عبـد اللطيف
باريـز مـربط خيـلنا
ورصـاصنـا قلّط جنيف

مع الإشارة إلى أن «مدينة» جنيف كانت مقر عصبة الأمم في ذلك الزمان.

ويرتبط تاريخ هذه الردة من الحداء، بتاريخ الحركة الوطنية في جبل عامل، وتاريخ «دار الطيبة» مقر آل الأسعد المعروفين بآل علي الصغير الوائلي.

دار الطيبة لها زعامة روحية وسياسية

من الأقوال المنسوبة إلى أحد كبار علماء الشيعة في الجنوب قوله: «إذا تعذّر عليك الحج إلى بيت الله الحرام، فزُرْ «دار الطيبة»، وقد تكون هذه العبارة غير صحيحة أو أنها قيلت بأسلوب آخر، إلا أن انتشارها يدل على الرابطة الروحية التي تشد الشيعة إلى دار الطيّبة.

وكان المرحوم كامل بك الأسعد، زعيم دار الطيّبة في مطلع القرن الحالي، قد أيّد حكم الشريف فيصل في دمشق سنة ١٩٢٠، وثار ضد الافرنسيين في بداية عهد الانتداب.

لذلك اتخذ الافرنسيون، ومنذ ذلك الوقت، موقفاً معادياً لدار الطيبة، وغذّوا نفوذ بعض العائلات الأخر، على حساب زعامة آل الأسعد.

ومنذ بداية عهد الانتداب أخذ يتوالى على الجنوب عدد من المستشارين الافرنسيين، كان أبرزهم على الاطلاق القومندان باتشكوف، وهو ابن الكاتب الروسي الشهير مكسيم غوركي من أم افرنسية.

وكان باتشكوف هذا مبتور اليد اليمنى، معقّد الشخصية، مغرقاً في استبداده، يتدخل بكل شاردة وواردة، ولا سيما في الانتخابات النيابية، فيرفع من يشاء ويقصي من يشاء، بدون أي تقدير للاعتبارات الوطنية والطائفية.

بنت جبيل قطب الحركة الوطنية

وفي سنة ١٩٣٤ ظهرت على المسرح السياسي في الجنوب حركة وطنية كان من أبرز قادتها علي البزي وموسى الزين شراره وسواهما، فتصدّت علناً لسياسة الانتداب الافرنسي، ودعت إلى تحرير الجنوب من الاقطاعية السياسية الممالئة لحكم الافرنسيين.

وكانت بلدة بنت جبيل قطب هذه الحركة التي ما لبثت أن امتدت إلى صيدا وصور والنبطية ومرجعيون وسواهما من مدن الجنوب وقراه.

وكان ذلك في عهد المستشار باتشكوف، الذي واجه العنف بالعنف، فقمع بالقوة عدة مظاهرات وطنية سالت فيها دماء بعض الشهداء، واعتقل عدداً من قادة الرأي، وبث الارصاد في جميع أنحاء الجنوب، لمنع تفاعل الأحداث وتفاقمها.

في ذلك الوقت شغر أحد المقاعد النيابية في الجنوب، بوفاة النائب فضل بك الفضل، فبادر نسيبه بهيج الفضل إلى تقديم ترشيحه خلفاً له.

وكان سيد دار الطيبة حينئذٍ المرحوم عبد اللطيف بك الأسعد، الذي لم تكن السلطة الافرنسية راضية عنه، فقدم ترشيحه للمقعد الشاغر، بعد أن شجّعته الحركات الوطنية المشار إليها على ترشيح نفسه للنيابة، تحت شعارات وطنية، وضد مرشح السلطة، متحدّياً بذلك، وللمرة الأولى في تاريخ الجنوب، سلطان المستشار الافرنسي، ولا سيما القومندان باتشكوف بالذات.

وزحف موكب عبد اللطيف في أحد الأيام، إلى بنت جبيل، قلب جبل عامل ومركز الحركة الوطنية فيه، ليبدأ جولته الانتخابية بمهرجان شعبي يقام فيها، تأييداً لسيد دار

الطيبة وللشعارات الوطنية التي كان يرفع لواءها، فإذا بنت جبيل والقرى المجاورة لها تزحف لاستقباله استقبال الفاتحين.

وكان أبرز ما حدث يومئذ أن شاعراً شعبياً من بنت جبيل هو علي هيدوس، مشى أمام الجماهير الزاحفة وهو يحدو حدوة حماسية رائعة ومئات من الشبان ترد عليه:

«باشكوف خبّر دولتك
سلطاننا عبد اللطيف
باريز مربط خيلنا
ورصاصنا قلّط جنيف

وأسفرت المعركة أخيراً عن انتصار باتشكوف على عبد اللطيف سياسياً، عندما أعلن، بالنتيجة، فوز بهيج الفضل بالمقعد النيابي، في حين أحرز عبد اللطيف انتصاراً وطنياً وشعبياً بعيد المدى تفاعلت قوته مع مرور الزمن.

ولم يمضِ سوى وقت قصير، حتى استلمت الجبهة الشعبية مقاليد الحكم في فرنسا، وتغير مناخ السياسة في لبنان، فأغمض عبد اللطيف، بعد ذلك بقليل، عينيه ومات كما يموت الأبطال، وإذا بجماهير جبل عامل تزحف إلى دار الطيبة، لمبايعة أحمد بك، ابن عبد اللطيف بك، على زعامة جبل عامل وهي «تحدي»:

«مات الزعيم عاش الزعيم
أحمد بدار الطيّبه»

أما ردّة علي هيدوس السابق ذكرها، فقد تغلغلت في قلوب أهل الجنوب وترسّخت في ذاكرتهم، حتى صاروا يحدونها في كل مناسبة، فدخلت في تاريخنا الشعبي وصار اللبنانيون «يتندرون» بها في مجالسهم.



... سلطاننا عبد اللطيف

باريز مربط خيلنا
ونعجز عن ربط حمار في قرية «المطلّة»

المعروف أن آل العبد الله في بلدة الخيام، كانوا وما زالوا يناوئون آل الأسعد حيناً، على زعامة المنطقة، ويتعاونون معهم في أغلب الأحيان.

وآل الأسعد هم «بكوات» المنطقة، أما آل العبد الله فقد احتفظوا بلقب «الأفندية»، مع أنه كان من حقهم وبإمكانهم أن يحصلوا على لقب «البكوية»، عندما ازدهرت سوق هذه الألقاب في أواخر عهد السلطنة العثمانية، ولا سيما أن آل العبد الله يمتّون بنسبهم، كما يقال، إلى الأمراء التنوخيين.

وكان «أفندي» زماننا: المرحوم علي العبد الله، الذي شغل كرسي النيابة أكثر من مرة، بالتعاون مع «بيك» زمانه من آل الأسعد، وكان ذكياً وشجاعاً وظريفاً، وهذه المزايا، بالإضافة إلى موهبة نظم الشعر على البداهة، هي من مميزات آل العبد الله.

وفيما كان علي أفندي يتحدث يوماً في أحد مجالسه الخاصة، عن الطريقة التي تمت بواسطتها معالجة قضية فلسطين فسببت ضياعها، قال بظرفه المعهود: «صَدّق حكّامنا أن بإمكانهم أن يجعلوا باريز مربط خيلهم، حتى صرنا الآن نعجز عن ربط حمار في قرية «المطلة».

وقرية المطلة هذه هي أقرب قرية فلسطينية إلى بلدة الخيام، مقر آل العبد الله، وتقع على تلة تشرف على سهل الحوله إلى الجنوب وعلى مرج العيون إلى الشمال، وقد قيل انها مفتاح فلسطين الشمالي.

جورة الذهب التي خسرها العرب
قرية «المطلّة» وتد جحا في لبنان

قبيل نهاية القرن الماضي اشترى البارون روتشيلد اليهودي، قرية المطلة، إحدى قرى منطقة مرجعيون في تلك الأيام، من مالكها جبور بك رزق الله من صيدا، وذلك في نطاق المخططات الصهيونية، لجعل قرية المطلة قرية يهودية، و «مغط» حدود «أرض الميعاد» إلى ما وراءها.

وكان زعيم المطلة الشيخ علي الحجّار من زعماء الدروز المعروفين ومن أصحاب المكانة عندهم، إذ سبق له أن قاد إحدى حركات العصيان المسلح ضد الدولة العثمانية وبطش بإحدى حملاتها فقتل بعض أفرادها وشتت شمل من تبقى منها، ويقال إن نسيب بك جنبلاط توسط يومئذ بين الدولة والحجار فعفي عنه.

وفي أحد الأيام استدعاه قائمقام مرجعيون «رفعت بابان بك» لغاية ما، وعند المساء توجه عائداً إلى قريته، إلا أن فرسه وصلت صباح اليوم التالي إلى المطلة، بدون فارسها، فهب رجاله يبحثون عنه حتى عثروا عليه مقتولاً ومطروحاً قرب نبع الحمام في سهل مرجعيون.

قيل يومئذ إن قائمقام مرجعيون كان وراء مصرعه، كما أشيع أن أحد زعماء المنطقة كان يترصد خطواته، إلا أن مقتل الحجّار ما زال حتى الآن سراً مغلقاً لم يستطع أحد أن يكشف حقيقته، وقد يجوز التكهن، بالنسبة إلى تسلسل الأحداث، أن إزالة الحجار من الطريق سهّلت عملية اقتلاع الدروز من قرية المطلة واستقدام بعض العائلات اليهودية للإقامة فيها، ولم يفطن أحد في ذلك الوقت، أن قرية المطلة هذه ستصبح في ما بعد «وتد جحا» الصهيونية في لبنان.

وعندما انتهت الحرب الكونية الأولى شرع اليهود يخططون لتوسيع رقعة وطنهم المنشود، فألفوا عدة كتب ونشروا عدة دراسات ملفقة، زعموا فيها أن حدود أرض الميعاد تمتد شمالاً إلى ما وراء قرية المطلة اليهودية، دون أن يشيروا طبعاً، إلى أن أقدام اليهود لم تكن قد وطئتها قبل عشرين سنة خلت، وهكذا صارت المطلة رأس الحربة لشق خريطة لبنان، ولسيطرة اليهود على منطقة الحولة.

«الحولة جورة الذهب»

من ينظر إلى خريطة لبنان يرَ أن حدود فلسطين تتطاول وتمتد داخل حدود لبنان، في زاويته الجنوبية الشرقية، وهذا الجزء المتطاول على حدود لبنان إلى ما وراء قرية المطلة، هو منطقة الحولة، التي كان آباؤنا يقولون إنها «جورة الذهب»، لأنها كانت ولا تزال من أخصب بقاع الأرض.

وجورة الذهب هذه، ليست بالأصل أرضاً فلسطينية، بل مقاطعة لبنانية تابعة لقائمقامية مرجعيون حتى سنة ١٩٢٤، بالإضافة إلى ذلك فإن معظم الأراضي الزراعية في الحولة كانت مزارع لأهالي مرجعيون. إلى أن ضاعت فلسطين سنة ١٩٤٨، وضاعت معها أملاك أهالي مرجعيون في الحولة.

وتبلغ مساحة منطقة الحولة مئتين وخمسين ألف دنم تقريباً، موزعة على الشكل التالي:

١ ـ مئة ألف دنم تقريباً من الأراضي الجبلية القائمة غربي سهل الحولة وكان القسم الأكبر منها أراضي أميرية تخص الدولة، والباقي يملكه اللبنانيون من سكان القرى المجاورة.

٢ ـ خمسون ألف دنم تقريباً هي مساحة بحيرة الحولة ومجاري الأنهار والمستنقعات.

٣ ـ مئة ألف دنم تقريباً من الأراضي الزراعية.

كيف ضاعت الحولة

في مطلع سنة ١٩٢٤ قدمت الإدارة البريطانية في فلسطين، إلى المفوضية العليا في لبنان، كتاباً ذكرت فيه أن الحدود القائمة بين لبنان وفلسطين غير صحيحة ويجب تعديلها وفقاً لمقررات مؤتمر «سان ريمو» في إيطاليا سنة ١٩٢٠، ولصك الانتداب البريطاني على فلسطين، الذي أقرّته عصبة الأمم في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٢.

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن صك الانتداب المذكور كان يفرض على الحكومة البريطانية تنفيذ سياسة انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وقد جاء في مذكرات وايزمن أن اليهودي الأميركي بنجامين كوهين كان قد اشترك في وضع صك الانتداب المذكور.

وعليه تألفت لجنة للنظر بطلب تعديل الحدود، ضمت ممثلاً عن الانتداب البريطاني وآخر عن الانتداب الإفرنسي، والوجيه المرجعيوني مراد غلميّه، بصفته من كبار الملاكين في المنطقة.

وفي أول اجتماع عقدته هذه اللجنة عرض المندوب البريطاني، نسخة عن خريطة تابعة لوثائق صكّ الانتداب البريطاني على فلسطين، وموقعة من لويد جورج وكليمنصو، وهي تضع منطقة الحولة ضمن حدود الانتداب البريطاني، أي ضمن حدود فلسطين. فثارت ثائرة مراد غلميه، الذي

فوجيء بهذه الحقيقة المؤلمة، وطلب من المندوب الأفرنسي أن يصار إلى مراجعة وزارة الخارجية الأفرنسية بالموضوع.

وتأجلت اجتماعات اللجنة إلى أن تبين من أوساط المفوضية العليا، أن الخريطة المذكورة، كانت قد دُسَّت بين بعض الوثائق المعروضة على الرئيس الأفرنسي كليمنصو، فوقّعها عن الجانب الأفرنسي دون أن ينتبه إلى الأيادي الصهيونية، التي كانت منذ ذلك الحين تعمل لضم الحولة إلى فلسطين، وبالتالي إلى الوطن الإسرائيلي المنشود.

وهكذا وبموجب هذه الخريطة المدسوسة، انتقلت القرى التالية من لبنان إلى فلسطين:

١ ـ المطلة ٢ ـ النخيلة ٣ ـ الصالحية ٤ ـ الناعمة ٥ ـ الخالصة ٦ ـ الزوية ٧ ـ المنصورة ٨ ـ الذوق الفوقاني ٩ ـ الذوق التحتاني ١٠ ـ خان الدوير ١١ ـ الدوارة ١٢ ـ الخصاص ١٣ ـ العباسية ١٤ ـ دفنة ١٥ ـ اللزازة ١٦ هونين ١٧ آبل القمح.

وكان أول ما فعله اليهود، بعدئذ، أنهم اشتروا قطعة كبيرة من الأرض قرب قرية آبل القمح، انشأوا فيها قرية نموذجية جديدة هي قرية «كفر جلعادي»، أول قرية تعاونية في فلسطين الشمالية.

وتوخى اليهود أن يجعلوا من قريتهم هذه نموذجاً لوطنهم العتيد، بدقة تنظيمها وجمال ابنيتها وحدائقها وممراتها، وأنشأوا

فيها مدخنة ومزرعة أبقار ومعمل ألبان ومنحلاً لإنتاج العسل وبساتين أشجار متنوعة، بالإضافة إلى مدرسة ودار حضانة وأندية رياضية وما أشبه ذلك.

وكانوا في مجال الدعاية لمشاريعهم التوسعية، ينشرون في أوروبا وأميركا صُوَر بيوت قرية آبل القمح الترابية الحقيرة وأطفالها المتسكعين في أزقتها، وصُوَر أهاليها يركبون على الحمير ويحرثون حقولهم بواسطة الثيران الهزيلة، إلى جانب صُوَر قرية «كفر جلعادي» المجاورة بأبنيتها الجميلة وحدائقها المرتبة ومعاملها التي كانت تضج بالحياة.

مياه «الحولة» تجعل القفر يزهر كما تنبأ أنبياء اليهود

إذا نظرنا إلى خريطة تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٨، نجد أن حصة إسرائيل كانت الأراضي الممتدة من عكا إلى تل أبيب وصحراء النقب، بالإضافة إلى منطقة الحولة في أقصى الشمال، فلماذا هذا الإصرار على امتلاك منطقة الحولة؟

الجواب بسيط إذا عرفنا أن مياه الحولة تصب الآن في صحراء النقب، فتجعل القفر يزهر، كما تنبأ أنبياء اليهود في التوراة، وإذا عرفنا كذلك أن إنتاج الحولة يسد القسم الأكبر من حاجة إسرائيل إلى المواد الغذائية.

فسهل الحولة تتجمع فيه رواسب جبل الشيخ والجولان في الشتاء، وتخترقه في أبعاد متناسقة مياه الأنهار المقدسة وهي

الحاصباني والوزاني واللدان والبانياسي، والتي تلتقي في بحيرة الحولة - «حنفية» فلسطين التي لا تنضب.

والمعروف أن أرض الحولة هي من أخصب الأراضي في العالم، فهي تعطي ثلاثة مواسم في السنة، ويبلغ فيها الخصب درجة تفوق حدود التصور.

هذا وتبلغ صادرات إسرائيل من الأسماك رقماً خيالياً، وهذه الأسماك تستخرج من البحيرات الاصطناعية التي أنشأها اليهود في أملاك الأمير خالد شهاب المغتصبة في بلدة الناعمة بالقرب من بحيرة الحولة.

والذي ينظر الآن، عبر الحدود اللبنانية، إلى سهل الحولة، يتساءل أين كانت بحيرة الحولة، بعد أن حصر اليهود مياهها وجففوها كما جففوا المستنقع المجاور لها، فتحولت تلك الأرجاء إلى أراضٍ زراعية وإلى بحيرات اصطناعية لتربية الأسماك.

العرب باعوا أرضاً واليهود كانوا يشترون وطناً

عندما انضمّت الحولة إلى فلسطين سنة ١٩٢٤، كان أهالي منطقة مرجعيون وحاصبيا يملكون قسماً كبيراً من الأراضي الزراعية فيها، وكان المخطط الصهيوني البريطاني يقضي بانتزاع ملكية تلك الأراضي، وتمليكها للمؤسسات

اليهودية بأي ثمن كان. لذلك أثيرت في وجه الملاكين اللبنانيين سلسلة من المضايقات، كان أهمها تحريض المزارعين على الملاكين وأكل حقوقهم.

وكان من الطبيعي أن يلجأ الملاكون إلى المحاكم الفلسطينية التي كانت تأتمر بأوامر الأنكليز، لذلك كانت تؤجّل وتسوّف وتعيّن اللجان والخبراء، وكانت بعض المراجعات توجب السفر أحياناً إلى لندن، وفي هذه الأثناء كان الملاكون لا يستفيدون من أملاكهم شيئاً، في حين كانوا مضطرين إلى ملاحقة دعاواهم بدون طائل، فوقع معظمهم تحت وطأة الديون المتراكمة، حتى ضعفت ثقتهم بأنفسهم وفقدوا أملهم بأملاكهم فباعوها أخيراً لتسديد ديونهم.

ومع كل ذلك احتفظ أكثر أهالي مرجعيون وحاصبيا بأملاكهم في الحولة، رغم جميع المضايقات، ورغم الإغراءات المتواصلة من قبل سماسرة اليهود، كما تدل الإحصاءات التي تمت مؤخراً واعترفت بها الحكومة اللبنانية، عندما وضعت قانون توزيع عائدات أملاك العدو على الملاكين اللبنانيين في فلسطين.

وتدل هذه الإحصاءات أن اللبنانيين ما زالوا يملكون المساحات التالية في سهل الحولة، عدا أملاك بلدة هونين الواسعة والتي لم نتوصل إلى معرفة مساحتها:

يملك أهالي جديدة مرجعيون	١٤٢٢١ دنم
أهالي كفركلا	٢٠٠٧
أهالي دير ميماس	١٠٨٧
أهالي حاصبيا	٤٤٤١
أهالي القليعة	٢١٠
أهالي الطيبة	٤١٩
متفرقات	٢٠٠
المجموع	٢٢٥٨٥ دنم

ومن أكبر هؤلاء الملاكين جورج ندّه الذي يملك ٢٥٧٧ دنم في قرية الذوق الفوقاني، وقد عرض عليه سماسرة اليهود، قبل قيام إسرائيل، مليون ليرة لبنانية، فرفض أن يبيع أرضه إلى اليهود.

كما يملك الأمير خالد شهاب ١٧٠٠ دنم في قرية الناعمة، وقد رفض أن يبيع الدنم بمئة جنيه فلسطيني، كما رفض تأجير قسم من أراضيه إلى اليهود لكي يحوّلوها إلى بحيرات اصطناعية لتربية الأسماك لقاء أجور مغرية جداً، وهكذا فعل آل بركات وآل جبارة وآل غلمية وآل عودة وسواهم من كبار الملاكين.

اليهود يستولون على جميع أراضي الحولة

ومما يؤسف له، أخيراً، أن أهالي منطقة الحولة نزحوا جميعاً إلى لبنان، عندما نشبت حرب سنة ١٩٤٨ وتركوا ديارهم تنعي من بناها، فاستولى عليها اليهود لقمة سائغة، وكان عددهم يومئذ زهاء خمسة وعشرين ألف نسمة، وهم - باستثناء أهالي قريتي هونين وآبل القمح - ينتمون إلى عشيرة «الغوارنة»، التي نزحت من غور الأردن إلى الحولة في وقت سابق.

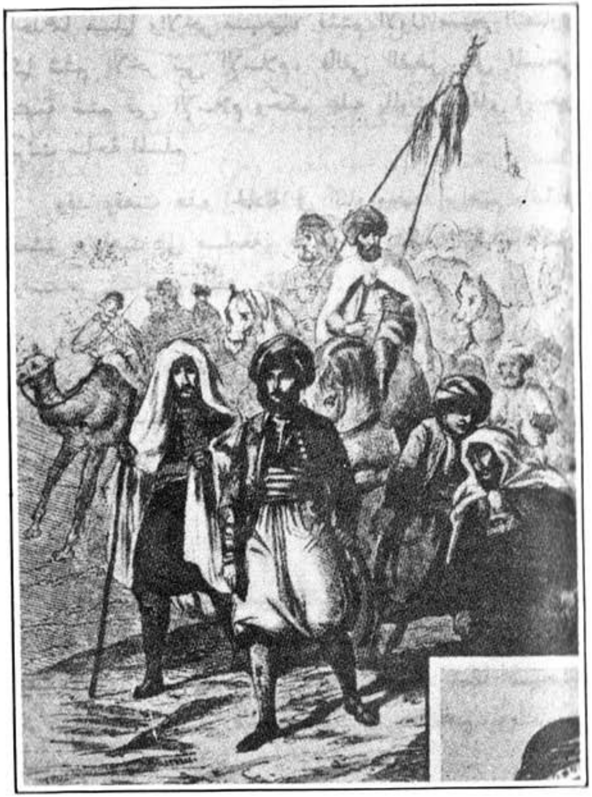
وقد تمكن أهالي قريتي هونين وآبل القمح من استعادة الجنسية اللبنانية، لأن سكان منطقة الحولة كانوا لبنانيين وقيود نفوسهم موجودة في مرجعيون بموجب إحصاء سنة ١٩٢١، أما الغوارنة فقد احتفظوا بالجنسية الفلسطينية على أمل العودة إلى ديارهم.

الله رب جميع العالمين

مما لا ريب فيه أن الفاتح المصري إبراهيم باشا كان قد أحسن معاملة المسيحيين ورفع من شأنهم وساوى بينهم وبين المسلمين، طوال مدة وجوده في هذه البلاد.

هذا مع العلم أن المسيحيين كانوا قد حُرموا من ممارسة طقوس ديانتهم في بعض الأحيان ولا سيّما حَمْل الصليب أمام جنازاتهم، كما منعوا من لبس بعض أنواع الألبسة المميزة وأخضعوا أحياناً لأعمال السخرة، وفُرضت عليهم ضرائب معينة، وكان على المسيحي أن يمرّ عن شمال المسلم، فإذا مرّ عن يمينه تعرض للشتم والإهانة.

وقد فاخر رستم باز في مذكراته، بعهد إبراهيم باشا، لأن إبراهيم الدوماني المسيحي كان قد استطاع، في ذلك الوقت، أن يدخل إلى دمشق راكباً على فرس رهوان، إذ ان ركوب الخيل كان محرّماً على النصارى، وقد تم ذلك بنفوذ حنا البحري الذي أعطاه إبراهيم باشا لقب «بك»، ولم يسبق لأي مسيحي أن حصل على هذا اللقب قبل ذلك التاريخ.



إبراهيم باشا في مقدمة جيشه

ومما تناقلته الألسن أن رجلين تشاجرا في دمشق، وكان أحدهما مسلماً والآخر مسيحياً، فشتم الأول مسيح النصارى كما شتم الآخر نبي الإسلام، فألقي القبض على المسيحي بتهمة شتم نبي الإسلام وحُكم عليه بالموت حرقاً، في حين بُرِّئت ساحة المسلم.

وقد وقعت هذه الحادثة في أثناء وجود إبراهيم باشا في دمشق وتناهت إلى مسامعه، فأمر حالاً بتوقيف تنفيذ الحكم، واستدعى القاضي والمفتي وقال لهما:

«إذا شتم المسيحي نبي الإسلام، فإنه، بموجب دينه، لا يقترف خطيئة، لأن كتابه لم يذكر له شيئاً عن نبي الإسلام، أما إذا شتم المسلم مسيح النصارى، فإنه، بموجب دينه، يرتكب خطيئة كبرى، لأن كتاب الإسلام يقول إن عيسى ابن مريم هو من روح الله، لذلك وجب أن يكون الحكم على المسلم ضعفي الحكم على المسيحي».

ومما يروى أن المسيحيين كانوا قد شرعوا ببناء كنيسة لهم في إحدى مدن سوريا الشمالية، فمنعهم المسلمون من ذلك، وعندما وصل إبراهيم باشا إلى تلك المدينة، شكا المسيحيون أمرهم إليه، فاستدعى وجهاء المسلمين وعلماءهم، وطلب من أحدهم أن يتلو الفاتحة.

فأخذ هذا بتلاوتها إلى أن وصل إلى الآية الكريمة القائلة: « الحمد لله رب العالمين » فقاطعه إبراهيم باشا قائلاً: «وهل

الله هو رب العالمين، أم رب المسلمين وحدهم؟» فأجاب الحاضرون: «لا بل هو رب العالمين جميعاً».

فقال إبراهيم باشا: «إذا كان الله ربّاً لجميع العالمين، بما في ذلك نصارى مدينتكم، وجب عليكم، إذن، أما أن تسمحوا لهم بدخول جوامعكم، وهي بيوت لله، ليعبدوه فيها على طريقتهم الخاصة، وإما أن تسمحوا لهم بإكمال بناء كنيستهم ليقيموا فيها فرائض دينهم بدون أي إكراه».

الطربوش في لبنان

المعروف أن إبراهيم باشا هو الذي عمّم لبس الطربوش في بلادنا، عوضاً عن العمامة، وكان أول من لبسه الأمير بشير الشهابي سنة ١٨٣٨، وأصل الكلمة «سربوس» لا طربوش، وتعني بالفارسية غطاء الرأس.

٦

دُفِنَت الوَثيقة مَعَهُ في القبر ليوم الحَشر

تولّى حاكمية إحدى المحاكم، في عهد الأتراك، قاضٍ شاب عرف بقلّة التروّي.

وحدث أن عُرضت عليه دعوى إرث، بين رجل وأرملة أخيه، وكانت هذه الدعوى ما تزال عالقة أمام القضاء منذ زمن طويل، وقد تعاقب على النظر فيها عدد من القضاة، دون أن يبتّوا بأمرها، فحكم القاضي المذكور لمصلحة الرجل ضد الأرملة.

وكان لتلك الأرملة خال على جانب من الحنكة والدهاء، فبادر إلى رفع دعوى شخصية، ضد العزة الإلهية، لدى القاضي المذكور.

فاستدعاه القاضي، ولم يكن يعلم أنه خال تلك المرأة، وسأله عن سبب إقدامه على اقتراف ذلك المزاح الشائن بحق الله عز وجل.

فأكد الرجل أنه جادٌ في دعواه، لأن الله سبحانه تعالى

كتب له قَدَراً سيئاً، فأكثر أوجاعه وأطال عمره، وقلل رزقه وأكثر عياله، وناصر أعداءه عليه وأبعد عنه أصدقاءه، وقد ثابر الرجل على الصوم والصلاة وتأدية فرائض التقوى، فثابر الله على مكافأته بالأوجاع والمصائب منذ أكثر من ثلاثين سنة، وبما أنه رجل مؤمن ويعلم بأنه لا يصيب الناس إلا ما كتب الله لهم، لذلك فهو يرجو من المحكمة، أن تحكم له على الله بالتعويض مما أصابه منه.

فقال له القاضي: «ولماذا لم ترفع دعواك هذه أمام أحد القضاة الذين تعاقبوا قبلي على هذه المحكمة منذ ثلاثين سنة حتى الآن؟».

فأجاب الرجل: «لأن جميع الذين جاؤوا قبلك كانوا يخافون الله، أما أنت فلا تخاف الله، ولذلك رفعت دعواي هذه إليك».

فغضب القاضي وسأله: «وكيف علمت أني لا أخاف الله»، فأجاب: «لأنك حرمت الأرملة وأطفالها الأيتام من مال أبيهم، فلو كنت بالحقيقة تخاف الله لآمنت بقوله تعالى: ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ ـ الآية الكريمة ـ».

قصة بنت حسب ونسب

هذه القصة، كان قد نقلها إلينا أحد الرواة، فطويناها في جعبتنا على أنها قصة يتيمة، إلى أن نتمكن من كشف حسبها

ونسبها، أي من معرفة أبطالها وسائر عناصرها كقصة لبنانية واقعية.

إلا أننا لم نلبث أن حظينا بقصة أخرى مشابهة لها، ولكنها، على ما يبدو، بنت حسب أصيل ونسب نبيل، لأنها منسوبة إلى قاض سوري مشهور، هو المرحوم زاهد الألشي، والد جميل الألشي أحد رؤساء الحكومات السورية السابقين.

تقول القصة إن رجلاً من دوما رفع إلى القاضي زاهد الألشي دعوى ضد الله سبحانه تعالى، وكان زاهد بك من أصحاب الرحابة في القانون ومن محبي الطرافة في الأدب فعين جلسة خاصة دعا إليها بعض كبار الموظفين واستدعى المدعي وطلب منه، بجد مصطنع، أن يبسط دعواه أمام المحكمة.

فقال الرجل، إن الله أعطاه عائلة كبيرة ورزقاً قليلاً، وبلاه بشراهة في معدته وضعف في إرادته حتى نكب بصحته وأعطاه سحنة كريهة وزوجة سفيهة، تتطاول عليه أمام الناس حتى فقد الكرامة والإحساس، ووهبه طول الحياة في أنحس الأوقات، حتى حاول الانتحار فتعذرت عليه الوفاة، ومنذ عشرين سنة حتى ذلك الوقت تعاقبت عليه المصائب والويلات، ولذلك فهو يطلب من المحكمة أن تحكم له على الله بالتعويض عمّا أصابه منه.

فسأله القاضي: «ولماذا لم ترفع دعواك إلى أحد القضاة الذين تعاقبوا قبلي على هذه المحكمة؟»، فأجاب الرجل: «لأن

أسلافك من القضاة لم تكن عندهم الشجاعة الكافية للنظر بمثل هذه الدعوى، أما أنت فقد بلغني أنك شجاع ولا تخاف من الله».

وتقول الرواية أن زاهداً الألشي أبرأ ذمة الله مع الرجل، فدفع إليه تعويضاً من ماله الخاص، واستكتبه وثيقة يبرىء فيها ذمة الله من جميع حقوقه عليه.

وقد أوصى زاهد الألشي بأن تدفن معه تلك الوثيقة في القبر ليوم الحشر.

نقطة على حرف

من مآثر الإمام الأوزاعي أنه احتج بشدة على اضطهاد العباسيين للمسيحيين اللبنانيين، بعد فشل ثورتهم المعروفة باسم ثورة «المنيطرة» سنة ٧٥٩.

مآتم الفضلاء: رَبيع الشعراء

الندب في المآتم تقليد قديم في لبنان وفن شعبي محبب إلى قلوب اللبنانيين، يتولاه غالباً شعراء الزجل الذين يجدون فيه أرحب ميادينهم فيعبّرون بواسطته عن مفاخر اللبنانيين بتكريم موتاهم عند تشييعهم إلى مقرهم الأخير.

ويحدث أحياناً أن تقال ندبة موفقة على أحد وجهاء قومه فيتناقلها اللبنانيون ويؤمّونها وينّدبونها على موتاهم مدى سنوات عديدة، وقد سمعت يوماً بعض النادبين في النبطية يندبون ندبة أعرف أنها قيلت على طفل وحيد من آل شهاب، قبل عدة سنوات، وهي من أجمل الندبات:

«الشمس صاحت في حملها
خسرت العفّه حملها
وصار تابوتك سفينه
والدمع فاض وحملها

ومن هذا القبيل كذلك ندبة مشهورة قيلت بالأمير فؤاد

أرسلان وبقي اللبنانيون يرددونها في مآتمهم طوال ربع قرن وهي كذلك من الندبات الجميلة:

«البين للغابه قصدها
وانتخب منها أسدها
ودرّة العقد اليتيمه
من جواهرنا نقدها

ومما يدل على علاقة النادبين بالشعراء أن كلمة «نقدها» هنا مستعارة من قول الشيخ ناصيف اليازجي يرثي أحد الفضلاء:

«والموت نقّادٌ على كفه
جواهر يختار منها الجياد

ومن قوله في موقف آخر

«إن لم يكن لك في نقد الرجال يدٌ
فانظر إلى الموت كيف الموت ينتقدُ»

ويعتقد سواد اللبنانيين أن الميت لا يُعطى حقه كاملاً إلا بفخامة مأتمه واكتظاظ النادبين حول نعشه، ويلعب عنصر المشاركات الاجتماعية دوره في هذا الموضوع، لأن «الدنيا قرضه ووفا» كما يقول العامة، والوفاء هنا هو من شيم اللبنانيين نحو فضلائهم.

والحاج خليل العبد الله كان واحداً من فضلاء الناس، اشتهر بعزيمته وشدّة شكيمته بالإضافة إلى مكانة عائلته، ولذلك أقيم له، مأتم حافل توافدت بالندب إليه وفود القرى المجاورة ومنها وفد أهالي إبل السقي الذين طلبوا مني أن أزوّدهم بندبة تليق بالمقام، وهكذا كان ودخلنا إلى بلدة الخيام ونحن نندب:

«بعد كنّا معاوزينك
للشدايد شايلينك
كنت مشكى الضيم فينا
سبع رابض في عرينك
حيف يا حامي حمانا
السيف يسقط من يمينك

وفي صباح اليوم التالي جاءني بطرس حشمه وهو شاعر شعبي وندّاب قديم معروف في المنطقة، وقال إنه تنسم رائحة أنفاسي في ردة الندب التي كان يندبها أهالي إبل السقي وهي من أجمل ما قيل في مثل هذه المناسبات منذ عدة سنوات، وقال إنه زاد عليها ردتين ولذلك فهو يقترح أن نتشارك عليها ـ سامحه الله، كأني فتحت مصرفاً بهذه الأبيات الثلاثة من الندب ـ قال بطرس حشمه:

«جموع من كل القرايا
فتّشوا لم شاهدونك

ضيّعوا مهاج القضايا
قصدهم تايشاورونك

فأعجبتني ندبة بطرس حشمه، ولا سيما «لم شاهدونك» هذه، وشقيقتها «تايشاورونك» ووافقتُ بطيبة خاطر على مبدأ المشاركة.

وحدث بعد عدة سنوات أنني ذهبت بمهمة إلى إحدى قرى منطقة جزين، وإذا بأهالي القرية يشيّعون أحد موتاهم وهم يندبون، ولا من يخجلون:

«بعد كنا معاوزينك
للشدايد شايلينك»، الخ

فقلت لنفسي، لا بأس لعل الفقيد من عيار الحاج خليل ووزنه، فتحل الاستعارة عن جدارة، وعندما استقر بي المقام، بعدئذٍ في بيت مختار القرية سألت عن المرحوم فقيل لي إنه كان «مشحرجي» يقطع الحطب من الاحراج ويصنع منه فحماً، فقلت: «قولوا إذن عليه».

«متّ والبلطه بيمينك
عالعذاب الله يعينك
اعتدت عا نار المشاحر
في جهنم ناطرينك

الحُزن يضعف عَمَلَ العَقل

يُـروى أن السلطان عبد الحميـد، استدعى يومـاً إلى الاستانة، الأمير مصطفى ارسلان للتحقيق معه بموجب وشاية كاذبة. وكان الأمير مصطفى من جهابذة الرجـال في ذلك الزمان، وكانت الاستانة، كما قيل عنها «الذاهب إليها مفقود والراجع منها مولود»، لأن أكثر الذين كان يستدعيهم عبد الحميد إليها، كانت أخبارهم تنقطع غالباً، عند أعتاب قصر «يلدز» أو على شواطىء البوسفور.

ولكن الذي حدث، أن السلطان العثماني لم يتمالك عن الوقوف اجلالاً للأمير الارسلاني، عندما دخـل عليه، لأن مهابة الأمير كانت لا تقاوم، فطيّب خاطره وأعاده مكرّماً.

قيل إن الأمير مصطفى، عندما بلغه نبأ مصرع ابنه الأمير محمد في الأستانـة، حيث كان عضـواً في مجلس المبعوثـان التركي، وجم واغتمّ غمّاً شديداً ورفض قبول أية مؤاساة، وأغلق بابه واسترسل إلى شجونه، ولم يجرؤ أحد أن يبدي له

رأياً أو أن يسدي إليه نصحاً، إلى أن دخل عليه أخيراً، أحد أصحاب المقامات الدينية في ذلك الزمان وبادره بقوله:

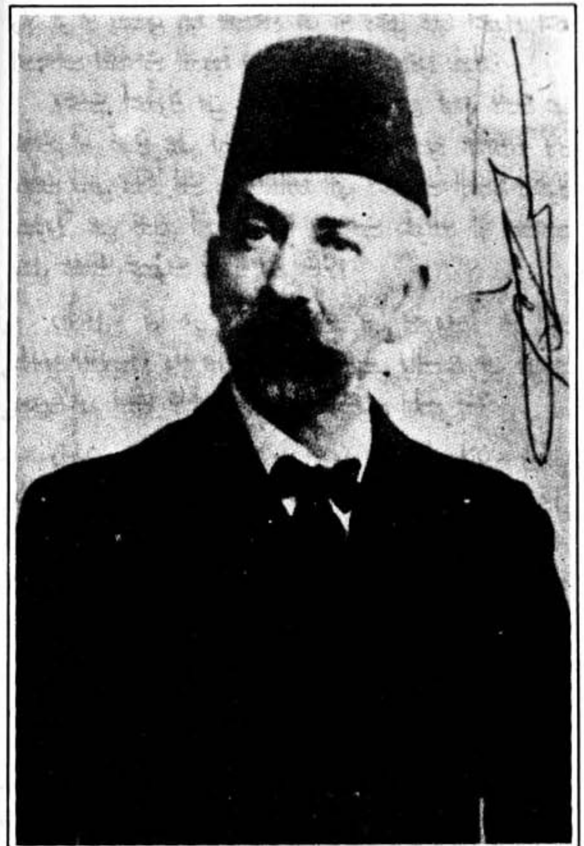
«جئت أحذّرك من خطأ أخشى أن تقع فيه، فأنت من حقّك أن تحزن على ابنك، ولكن حتى حدود عقلك، لأن عقلك ليس ملكاً لك بل للطائفة التي اختارتك العناية لتكون مسؤولاً عن تدبير أمورها فإذا سمحت لحزنك أن يضعف عمل عقلك خسرت تقواك وكرامتك».

والعقل، كما هو معروف. عند بني معروف، هو أحد الحدود المقدسة، وله عليهم حق التقديس والتنزيه عن كل ما يحجب نور فطنته كالحزن والغضب وشرب الخمر مثلاً.

والجدير بالذكر، ان الأمير محمد أمين أرسلان، شقيق الأمير مصطفى وأحد كبار مفكري القرن الماضي، كان قبل ذلك قد مات في الأستانة ودفن فيها، ولذلك ردد النادبون حول قصر الأمير الارسلاني يـوم مصرع ابنـه تلك الندبـة الخالدة:

«يـا اسـطنبـول اعـذرينـا
«محـمـدَين» فـيـكِ رهينه
لـو عـطونـا تحت عـرشـك
«بِمحـمـد» مـا رضـيـنـا

وهذه الردّة من الندب تذكّرنا بردّة أخرى لا تقل عنها فخامة وجمالاً وقد قيلت في مأتم المغفور لها والدة الأمير مجيد



الأمير مصطفى ارسلان
نبني كما كانت أوائلنا تبني . . .

ارسلان، ويشير النادب فيها إلى «مقام السيدة مريم» الموجود في خلده:

«تمجّدت خلده العظيمه
برفات تنين حلّوا
سيِّدة خلده القديمه
وسيِّدة لبنان كلو»

مختصر مفيد

كان الشاعر فؤاد جرداق يشكو من اضطراب في قلبه ويتنبأ بدنو أجله. وحدث اني رأيت في منامي، في إحدى الليالي، انه مات، وأن مناحة كبرى تقام له، وأنا أسير أمام جمهرة من الرجال أندب عليه:

«التمّتْ جموع العديده
يسمعوا منّك قصيده

وعندما استيقظت شكرت الله لأن ما حدث كان مجرد اضغاث أحلام.

وبعد أيام قليلة جاءني الجرداق، وقال: «قررت أن أموت قريباً»، فقلت: «عهدي بك من أصحاب النَّفَس الطويل وتحب المعلّقات والملاحم الشعرية، فلماذا تريد أن تختصر قصيدة حياتك»؟.

فأجاب: «ألم تقل أنت يوماً»:

«والعمرُ كالشعرِ أحلاه وأعذبه
على الدوام مفيدٌ منه مختصرُ»

لذلك قررت أن أكتفي بالمختصر المفيد من عمري وكتبت وصيّتي وجئت أطلعك عليها، قبل تسجيلها حسب الأصول.

وإذ به يجعلني في وصيته، مع شقيقه جورج وكلٍ من لبيب غلميه وموسى الزين شراره ووديع ديب وأمين نخله وفردوس المأمون وفوزي عطوي قيِّمين على تنفيذ وصيته التي يوصي فيها بحرق جثته وحفظ رمادها في مكتبته، ويمنع النساء ورجال الدين من حضور مأتمه، وبتكفينه عند حرق جثته بكفن أبيض مغطّى بالأزهار الحمراء، وهو القائل:

«في المرج أنواع الزهور كثيرة
وأَحبُّها عندي الشقيقُ الأحمرُ»

وبعد أن تلا عليَّ وصيته أضاف «وإني أوصيك شخصياً أن تندبني في مأتمي بما أنا أهله».

فقلت مازحاً: «متْ ولا تهكل هم الندب، فالندبة جاهزة» وأخبرته قصة المنام العجيب وأسمعته الندبة المذكورة، فأخذ يرددها، وزاد عليها فأصبحت:

«التمّت جموع العديده
يسمعو منّك قصيده

قُـوم يـا جـرداق غـرّد
بـقـوافـيـك الـفـريـده

وبعـد وقت قصير ذهب الجـرداق إلى مسقط رأسه مرجعيون، حيث لفظ أنفاسه بين أهله وذويه فحملناه إلى مقره الأخير نادبين عليه الندبة التي وافق عليها واشترك بنظمها قبل مماته.

الشعراء والغاوون

لاحظ أمين الريحاني، اننا أكثر الشعوب بكاء وأشدها انتحاباً، كأننا في مأتم دائم، وكأن الندب من مشتقات الانتداب ـ وكان ذلك، طبعاً في أيام الانتداب ـ وانتقد الريحاني قول الأخطل الصغير:

«أفحتمٌ عليّ إرسال دمعي
كلما لاح بارق في محيّا»

ثم انتبه إلى وجود الأخطل الصغير أمامه في القاعة عندما كان يتكلم، فاستطرد قائلاً: «أنت كذاب يا بشاره».

وقد أحدثت هذه العبارة أزمة حادة بين الشعراء والفلاسفة في ذلك الزمان.

ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا

اشتهر البطريرك غريغوريوس حداد ببعد نظره وقوة بصيرته، كما عرف بمواقفه الوطنية ونزعته العربية حتى أطلق عليه السوريون لقب «بطريرك العرب».

وعندما جاء «شارل كراين» سنة ١٩١٩ يستفتي اللبنانيين والسوريين حول مستقبل الحكم فيها قال له:

«نحن النصارى الأرثوذكس في هذا البلد عرب غساسنة تدعونا عروبتنا لنكون يداً واحدة مع أبناء قومنا ومع الدولة العربية الشريفية التي ارتضيناها وقبلناها».

وكان لهذا التصريح الخطير أثره الكبير على مجرى الاستفتاء حتى أن شارل كراين اضطر يومئذ إلى إرسال برقية إلى الرئيس الأميركي ولسون يقول له فيها إن القضية العربية ليست قضية إسلامية، كما يدّعي الأفرنسيون، بل قضية وطنية قبل كل شيء.

يحكى أنه أصيب في أواخر أيامه، بمرض في عينيه، فشعر



غريغوريوس حداد
بطريرك العرب

بغشاوة تغطي ناظريه، واستدعى لذلك أحد كبار الأطباء الذي تولى فحص عينيه بدقة، وبعد أن وجم قليلاً قال:

«إني لا أكتمكم يا صاحب الغبطة، وأنتم ممن تميّزوا بالحكمة والتقى، أن الإصابة خطيرة، ويوجد خطر على بصركم الغالي».

فقال البطريرك: «الحمد لله على سلامة بصيرتي».

حسن التخلص

يحكى أن الإمام الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية، ذهب يوماً يعزي خديوي مصر بوفاة أمه، وكان برفقته بعض العلماء الذين تهيّبوا المقام، تاركين الكلام أولاً للإمام.

وكان الإمام معتاداً أن يبدأ كلامه دائماً «بالحمدلة»، ولذلك ودون أن ينتبه إلى مقتضيات الموقف: قال: «الحمد لله»... وصمت قليلاً.

فالتفت الحاضرون، بعضهم إلى بعض، وقد أدركوا أن الإمام تعرّض لهفوة من هفوات الكلام، ولكن الشيخ محمداً عاد فأعاد كلمته بدون أي تكلف، وافتتح حديثه قائلاً:

«الحمد لله الذي أعزّها بوقوفكم على قبرها ولم يذلّها بوقوفها ذليلة على قبركم».

كما يحكى أن الشيخ أحمد رضا، وهو كذلك من أئمة الكلام وأسياد المجالس، ذهب مرة ليهنىء رجلاً بزواج ابنته، وعندما استقر به المقام قال: «الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه» واستدرك حالاً فأضاف: «ولا يتم التوفيق إلا برضاه إنه السميع المجيب».

من علمني حرفاً كتبت عنه مقالاً

لعل الأرشمندريت يوحنا الحرفوش كان خاتمة معلمي المدرسة الكلاسيكية القديمة في فن الحديث، فإذا «مدَّ» لك حديثاً، أكثرَ من ذكر الشواهد التي تكون أبياتاً من الشعر، أو آيات بينات، أو أمثالاً شائعة، حتى انك لتجد متعة بشواهده لا تقل عن متعتك بأحاديثه. وتصبح هذه الشواهد بمثابة محطات تستريح فيها أحياناً من عناء رحلة كلامية طويلة ينقلك فيها مكرهاً أو مختاراً.

- «الناس بلاء الناس»، إنه مثل صادق، وأنا الذي خبرت الناس طوال حياتي، وذقت حلوهم ومرّهم لم أجد ما أنفّس به كربي سوى قول الشاعر:

تـزهّـدني بـالـنـاس معـرفتي بهم
وطول اختباري واحداً بعد واحدِ»

ويضيف الحرفوش قائلاً: «أحببت رجلاً من عكا وأخلصت له الود، وحدث أن تعرض يوماً لتهمة أودت به إلى

السجن، فبذلت كل ما أوتيت من جهد وإقناع حتى أنقذته مما وصم به. وبعد مدة قصيرة وقع خلاف بيني وبين مطران الأبرشية، الذي كنت كما يقال، سيفه المسنون وسره المكنون، ولم يدر بخلدي يوماً أن يداخله بي شك أو ريبة، فإذا به قد انقلب عدواً بين ليلة وضحاها. وعلمت في ما بعد أن ذلك الصديق كان وراء هذا الخلاف وصح بي عندئذٍ قول من قال: «اتقِ شر من أحسنت إليه».

ويردف الحرفوش قائلاً: «أما «قاف» «اتقِ» فتكتب مكسورة بدون الياء، وقد نبهتك حتى لا يقع عليك انتقاد».

وهكذا فإن الأرشمندريت يوحنا الحرفوش، لم يكن قاموساً حياً فحسب، بل دائرة معارف تجمع فقه العرب وآدابهم، أما إذا سألته عن العربية فيقول:

«أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جرّاها ويختصم»

وإذا جئت نسأله مثلاً: لماذا يقال: «تفرّق القوم أيدي سبا» أجاب وكأنه يقرأ في كتاب: «جاء في مروج الذهب أن لقمان بن عاد بن عاديا هو الذي بنى سد مأرب في بلاد اليمن، وعندما غضب الله على أهلها أرسل إليهم سيل العرم، وكان ذلك في عهد عمرو بن عامر بن ماء السماء بن ثعلبة. فهدم عندئذ ذلك السد وجرف السيل القرى التي

كانت تحته من بلاد سبأ، فتفرق أهلها، ولذلك يقال: «تفرق القوم أيدي سبأ».

وإذا سألته مثلاً، من هو القائل: «اليوم خمر وغداً أمر» أجاب: «هو امرؤ القيس الذي قيل له إن بني أسد قتلوا أباه، وكان امرؤ القيس عندئذ يشرب الخمر مع جماعة من أصدقائه، فبقي متكئاً، وقال: «اليوم خمر وغداً أمر»، وفي اليوم التالي جرد حرباً على بني أسد وانتقم من قاتلي أبيه، فجرت عبارته مثلاً».

جئته في أحد الأيام أسأله، من هو عمرو الذي عناه الشاعر بقوله:

والمستجيرُ بعمروٍ عند كربته
كالمستجير من الرمضاء بالنار

فقطب الحرفوش حاجبيه وفرك جبينه ومشط لحيته بأصابع يمناه، ثم قال: «إن عمرواً المذكور هو ابن أم عمرو الشهيرة التي قال عنها أحد الشعراء:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو
فلا رجعت ولا رجع الحمار

فقلت: «ومن هي أم عمرو هذه، وما هي قصتها مع الحمار؟».

فقال: «إنها أم المدعو عمرو الوارد ذكره في البيت الأول». وتململ وتنحنح وقدم لي سيكارة...

لم أشأ أحراجه فقلت: وما شأن هذه «الواو» الزائدة في كلمة «عمرو»، فانفرجت عندئذ أسارير جبهته وقال: «واو» عمرو هذه لها قصة طريفة، وهي أن داود باشا، عندما جاء متصرفاً إلى لبنان، أحضر أحد الفقهاء ليعلمه اللغة العربية. وعندما وصل الفقيه معه إلى درس الفاعل والمفعول به، قدم شاهداً بقوله: «ضرب زيد عمرواً»، فصاح به داود باشا: «ولماذا ضربه، ألا يوجد قانون، أننا لا نقبل أن يحصل هذا في عهدنا». فأجاب الفقيه: «ضربه يا سيدي، لسبب وجيه فقد سرق «الواو» من أسمكم الكريم الذي كان قبلا يكتب بواوين أي «داوود»، وأضافها إلى اسمه، فصارت تكتب وراءه ولا تلفظ».

السيد يمثّل إرادة الله

تحدث رياض الصلح يوماً، عن الشيخ أحمد رضا، فقال إنه من كواكب جبل عامل المتلألئة، فمَن يا ترى كانت سائر الكواكب المتلألئة في مخيّلة رياض الصلح وفي جبل عامل في ذلك الوقت؟

لا شك أن صورة الشيخين سليمان ضاهر وأحمد عارف الزين كانت ماثلة، آنئذٍ في ذاكرته، لأن هؤلاء الرجال الثلاثة كانوا من رفاق جهاده.

والواقع أن سماء جبل عامل، عرفت في مطلع القرن

الحالي، عدة كواكب متلألئة: الشيخ عبد الحسين صادق، السيد عبد الحسين شرف الدين، السيد محسن الأمين، السيد محمد جابر آل صفا وسواهم.

وقد تميز علماء جبل عامل هؤلاء بالتصاقهم بالشعب فلم ينزووا في أبراج عاجية، بعضهم ناهض الأتراك، وبعضهم قاوم الأفرنسيين، ومنهم من أكمل شوطه معهم حتى النهاية.

السيد محمد إبراهيم كان أحد هؤلاء العلماء. ومن أصحاب الكلمة المسموعة والحجة الدامغة بينهم. فقد نسبت إليه فتوى خطيرة في ظروف محرجة، وذلك عندما احتدم الخلاف بين الشريف فيصل ملك سوريا وبين الأفرنسيين، وكان الخلاف مصيرياً حسبما هو معروف.

عرفنا السيد محمداً عندما كان قاضياً شرعياً في مرجعيون، وعرفنا عنه قصة جميلة وهي أنه اختلف يوماً مع قاضي صلح مرجعيون ـ المرحوم مصطفى الشماع على ما نظن ـ في موضوع ما، واحتدم النقاش، ولعل الأستاذ الشماع شعر بحرج ازاء حصافة السيد وبداهته وأراد أن يحسم الموقف فقال: «يجب أن تعلم، يا سيد، بأني أنا هنا أمثل وزارة العدل وهي أكبر مرجع قضائي في الدولة».

فأجاب السيد بكل هدوء: «وأنت يجب أن تعلم أيضاً، أنني أنا هنا أمثل إرادة الله بواسطة الشريعة الإسلامية».

لا يعلمون ماذا يفعلون

في أواخر سنة ١٩٢٥ امتدت الثورة السورية إلى بعض أنحاء لبنان الجنوبي، وحدث يومئذٍ أن أقدم أحد الرعاع الملتحقين بالثورة على إطلاق الرصاص على جرس الكنيسة الأرثوذكسية في حاصبيا.

فاستدعي المطران تيودوسيوس أبو رجيلي، على الأثر، إلى مركز قيادة الثورة حيث قال له قائدها حمزة الدرويش: «هذا الشاب اعتدى على كنيستكم، وقد حكمنا عليه بالإعدام رمياً بالرصاص، ويجدر بكم الآن أن تشاهدوا تنفيذ الحكم بأنفسكم».

فأجاب المطران: «الكنيسة ليست لي بل للسيد المسيح الذي سامح الذين صلبوه، لأنهم كانوا لا يعلمون ماذا يفعلون».

فليكن كلامكم نعم نعم أو لا لا

يروي القس إبراهيم داغر أنه ذهب يوماً يزور الشيخ سليم خير الدين الذي اشتهر بالحكمة والتبصر، فأمر الشيخ بإحضار صينية «المهداوية» ـ وهي نوع من الحلوى يصنعه الدروز لإحدى المناسبات في بيوتهم ـ ووضعها أمام ضيفه، فما كان من القس إلا أن تناول ملعقة واحدة فقط من الحلوى ولم يثنِّ.

فالحّ الشيخ عليه ودعاه بحرارة إلى تناول مزيد من المهداوية فاعتصم القس ابراهيم برأيه واكتفى بملعقة واحدة، فلاحت بشائر الرضى على وجه الشيخ وقال: «صدق ظني بكم»، فقال القس: «وما هو ظنك بنا؟»، أجاب الشيخ: «أن يكون كلامكم نعم نعم أو لا لا كما أوصاكم المسيح في إنجيله المقدس».

«ما جئت لأدعو الأبرار بل الخطأة إلى التوبة»

كان فؤاد جرداق قد تمذهب بمذهب الشك إزاء جميع المعتقدات الراهنة، وليس في ذلك أي حرج، إنما الحرج هو في أن الجرداق كان يجاهر بشكوكه ويلتزم بها في سلوكه، وكنا نحن معشر أصدقائه، سواء الذين جاروه بشكوكه والذين لم يجاروه، معجبين بانسجام الرجل مع نفسه.

والمطران بولس الخوري، على ما عُرف عنه من ورع وصدق سريرة، يتحلى برحابة في صدره ورجاحة في حلمه، جعلتاه يتقبل صداقات ذوي العقول لعقولهم وذوي الفضل لأفضالهم، بصرف النظر عن طوائفهم ومعتقداتهم، ولذلك نشأ بينه وبين الجرداق ود متبادل تشد أواصره وشائج الفكر والأدب.

وعندما مات فؤاد جرداق دُعي المطران بولس ليترأس جنازاً عن نفسه، ويعلم الله أنني «هلكتُ هم سيادته» ـ مع

يقيني بقدرته على خوض غمار مثل هذه المناسبات ـ إذ كيف يستطيع هو الآخر أن يبقى منسجماً مع نفسه في مثل هذا الموقف الحرج.

وإذا بسيادته يتقدم ويلقي كلمته المنتظرة، فينوّه بشاعرية الجرداق وأدبه الجم ويشيد بمواقفه الوطنية وخدماته للعلم والثقافة، ثم يقول:

كان الفقيد صديقاً عزيزاً على قلبي، فإن ابتعاده عن الكنيسة لم يحجب نور فطنته وإنسانيته، لذلك أحببته مثل ابنائي، مستشهداً بقول السيد المسيح:

«ما جئت لأدعو الأبرار بل الخطأة إلى التوبة»

حسب نواياكم تُجزَون

يحكى أن رجلاً غريباً وُجد في أحد الأيام ميتاً قرب حاصبيا، وأثبت التحقيق أن الرجل كان قد أصيب بنوبة قلبية فمات على قارعة الطريق، ولم تتمكن السلطة من معرفة هويته، إلا أن الكشف رجح أن يكون الرجل مسيحياً، لذلك طلبت السلطة أن يحضر أحد الكهنة ويقيم الفرائض الدينية عليه قبل دفنه.

وكان القس أسعد عبود راعياً لكنيسة حاصبيا الأنجيلية في ذلك الوقت فحضر ووقف فوق رأس الرجل وقال:

«أنا لا أعرف من هو هذا الرجل ولا أعرف عنه شيئاً،

إلا أنني أجنزه على نيته وأطلب لنفسه الرحمة، مستشهداً بقول سيدي المسيح: «كثيرون يأتون من المشارق والمغارب ويتكئون في ملكوت السماوات».

ولم يكمل القس عبود ما تبقى من الآية. فقال له أحد الحاضرين: «ولماذا لا تكمل الآية يا حضرة القسيس؟».

فأجاب القس عبود: «لأني أخاف أن لا يبقى أحد في الداخل». مع العلم أن ما تبقى من الآية هو: «وأما ابناء الملكوت فيطرحون خارجاً».

واسطة خير

عندما مات الشيخ علي الزين قيل إنه كان وجيهاً وشاعراً «وواسطة خير».

أما وجاهته فتالدة وطريفة، أي أنه ورث الوجاهة وزاد عليها.

وأما شعره فمتانة بدون تكلف وسلاسة بدون ضعف، وقد وقف يوماً يرثي المرحوم الحاج محمد العبد الله الكبير، الذي دفن في النجف الأشرف فقال:

أعلمتَ بالدمع الغزير الجاري
يا راحلاً لحمى عـزيز الجار

ومجاوراً دارَ الوصي أبي الهدى
هل أنت بالمهج الكئيبة داري

ولفظ الشيخ علي كلمة «دار» مكسورة، والأصح أن تكون مفتوحة، ولكنه كسرها لتصبح بديعاً لفظياً مع كلمة «داري» في القافية، فصاح به الشيخ عبد الحسين صادق: «افتح دار الوصي ولا تكسرها».

فأجاب الشيخ علي: «أنا لست ضليعاً بالقواعد اللغوية، فإن لم تتجاوزوا عن هفواتي وقفت عن أتمام مرثاتي».

فقال الشيخ عبد الحسين: «اتممها سامحك الله»، وعندما انتهى من القاء قصيدته هنأه عليها.

إلا أن الشيخ علياً، بالإضافة إلى شعره ووجاهته، كان يكتب حجابات للمؤمنين بها المنتفعين بواسطتها، فتقرب القلوب المتنافرة وتجمع الأحباب بعد طول غياب، ولذلك قيل إنه كان «واسطة خير».

وحدث يوماً أن ظهرت أعراض مرض جديد على الماعز في قريتي إبل السقي، وكان ذلك على ما أعتقد سنة ١٩٣٣، فقلقت أفكار أصحابها وتشاوروا بالأمر، فقال قائل: «ما لنا إلا الشيخ علي».

وذهبوا إلى قرية «قليا» واستنجدوا بالشيخ علي، فكتب لكل واحد منهم حجاباً مثلثاً مغلفاً بغلاف من الجلد أوصى

الشيخ بتعليقه في عنق الكراز، وهو التيس الذي يحمل جرساً في عنقه ويسير في مقدمة القطيع، فوقف انتشار المرض - على ذمة أصحاب الماعز.

التقيت بعد ذلك بالشيخ علي وسألته عن موضوع كتابة الحجابات، فقال إن عمله لا يتنافى مع عمل أي رجل دين آخر، لأنه يطلب من الله، بإيمان، أن يساعد الذين لا يعرفون كيف يطلبون مساعدته.

واستشهد الشيخ بقول السيد المسيح: «مَن منكم إذا طلب ابنه سمكة أعطاه حية» ولذلك فهو يعتقد أن الله يلبي طلبه لأنه لا يطلب منه إلا الخير والحق وهو سميع مجيب.

. «مريض ولكن داؤه في جيوبه»

كان الدكتور شاكر الخوري - أحد مشاهير الأطباء في القرن الماضي - شاعراً من شعراء البداهة المعروفين. زاره يوماً أحد الشعراء وطلب منه أن يفحصه ويكتب له وصفة طبية، ففحصه وكتب له الوصفة التالية:

«ثلاثٌ هُنّ من شرك الحمامِ
وداعية الصحيح إلى السقام
دوامُ مدامةٍ ودوامُ وطءٍ
وانزالُ الطعام على الطعامِ

ويحكى كذلك أن مريضاً فقير الحال جاءه يوماً. فكتب له الوصفة الطبية التالية على قصاصة من الورق:

«مريضٌ ولكنْ داؤُه في جيوبه
فليت ندى أهل الندى من نصيبه»

وسلّم الوصفة إلى المريض وقال له: «ولكن هذا الدواء غير موجود إلا عند سليم بك بسترس». مع العلم أن سليم بسترس كان من الوجهاء الأثرياء ومن أصحاب الايادي البيضاء في ذلك الزمان.

المعرّقات

من القصص المنقولة عن أحد مشاهير الأطباء اللبنانيين، في مطلع القرن الحالي، انه ذهب إلى الأستانة لكي يقدم امتحاناً خاصاً يعطى بموجبه إذن مزاولة المهنة، حسبما كانت تقضي قوانين تلك الأيام، فسأله رئيس اللجنة الفاحصة: «ما هي المعرّقات»؟ فارتبك الطبيب ولم يقدر أن يسمي أية عقاقير يمكن استعمالها لتعريق المرضى، فصاح به رئيس اللجنة: «أجب الا تعرف ما هي المعرقات». «فكده» عندئذ عرق الخوف الذي أخذ يتصبب من جبينه، وقال: «المعرّقات يا سيدي كثيرة ولكن أهمها الوقوف في حضرتكم».

«... ولكنني عنْ علمِ ما في غَدٍ عَمي»

القضاء والقدر

مشيناها خُطىً كُتبت علينا
ومَن كُتبت عليه خُطىً مشاها
ومَن كانت منيّته بأرض
فليس يموت في أرضٍ سواها

كان الخليفة عمر بن الخطاب في دمشق، عندما ظهر فيها مرض الطاعون، فأسرع بالخروج منها، فقال له أبو عبيدة الجراح: «أتهرب من قضاء الله؟» فأجاب الخليفة: «اهرب من قضاء الله إلى قدره».

فالقضاء، إذن، شيء، والقدر شيء آخر، وقد يموت الإنسان قبل أن يأتي قدره المحتوم، فيكون موته قضاءً لا قدراً[1].

(١) جاء في الأحاديث القدسية: أن أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، قال رب وما أكتب، قال مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. من مات على غير هذا فليس مني. (كتاب الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية).

فالقدر مثلاً، بالنسبة إلى «عُمَر»، هو أن يموت مقتولاً بطعنة من خنجر أبي لؤلؤة المجوسي في المدينة المنورة، وأما القضاء فهو ما كان يمكن أن يحصل، لو عرّض عمر نفسه لمرض الطاعون، ومات مصاباً به، قبل أن يأتي قدره بخمس سنوات على يد أبي لؤلؤة، مع العلم أن أبا عبيدة أصيب يومئذٍ بمرض الطاعون ومات به.

قرأت هذا الاجتهاد مؤخراً في كتاب عن القضاء والقدر، وهو اجتهاد في غاية الإبداع، بالنسبة إلى الذين يؤمنون بالقضاء والقدر، فهو يعطي كلاًّ من القضاء والقدر معنىً مستقلاً، بحيث يبقى الإنسان مسؤولاً عن مصيره حتى يأتي قدره.

كان إميل البستاني يقول: «الرجال تصنع أقدارها»، فهو على الأقل كان قد صنع بنفسه أقدار حياته: فالصبي الفقير الذي تعلم في مدرسة للأيتام، وكان يذهب ويعود حافياً يحمل حذاءه مع كتبه، ليلبسه في المدرسة فقط، صار في ما بعد من مشاهير الرجال في العالم.

وقبل مصرعه بأيام قليلة، كتب شبل خوري في جريدة الجريدة مقالاً بقي منه في ذكراتنا ما معناه، أن البستاني ينهض غالباً في الصباح ويستقل إحدى الطائرات قاصداً إلى الكويت أو عدن أو نيجيريا، ليوقّع على صفقة بمئة مليون ليرة، ويعود ظهراً ليستقبل في بيته سفيراً أو أميراً أو عالماً من علماء الأرض



اميل البستاني
عمّر تعمّر لبنان

كان قد دعاه لتناول طعام الغداء على مائدته، ثم يذهب بعد الظهر إلى المجلس النيابي ليشترك في مناقشة المواضيع المطروحة على بساط البحث، بعد أن يكون قد مرَّ بطريقه على إحدى دور النشر لمراجعة مسودة كتاب يعده للطبع عن البترول العربي، ويخرج توّاً من المجلس النيابي إلى المطار، ليركب الطائرة مرةً أخرى، قاصداً إلى لندن أو باريس أو القاهرة ليتناظر فيها مع أحد رجال السياسة عن القضية الفلسطينية، ويعود بعد منتصف الليل فينام في بيته، ليستيقظ في اليوم التالي لمزاولة أعمال أخرى مماثلة.

ومنذ سنوات قليلة، صدر كتاب بالإنكليزية عن إميل البستاني، وعلى غلافه صورة ولد يجري وراء عجلة، ذلك لأن إميل البستاني، عندما كان طفلاً، كانت هوايته الركض وراء عجلة صغيرة على طريق صيدا، ثم جعل شعاره في ما بعد «الركض وراء العجلة على طريق الحياة».

وبعد أن صمّم ونفذ مئات الأبنية والجسور والطرق والمطارات والمصافي وغير ذلك من الأعمال الجبارة، وبعد أن بنى لنفسه قصراً من أفخم القصور، ذهب يوماً إلى مسقط رأسه في قرية الدبية، فبنى لنفسه قبراً، لأنه كان يعرف بأن لكل شيء نهاية.

وعندما انتهى بناء القبر الذي كان رائعاً وجميلاً مثل جميع الأعمال التي صممها ونفذها في حياته، دعا نفراً من أصدقائه

لتدشين مقره العتيد، حيث شرب وإياهم زجاجة من الشمبانيا، لأن الرجل الذي عاش جاداً مع الحياة كان هازئاً مع الموت.

وبعد أيام قليلة ركب البستاني طائرته، حسب جاري عادته، في رحلة جديدة وراء عجلة الحياة، إلاّ أن الموت كان هذه المرة بانتظاره فسقطت طائرته في البحر قرب بيروت واختفى إلى الأبد، وبقي القبر فارغاً.

فيا ليت شعري لو استطاع مؤلف كتاب «القضاء والقدر» أن يخبرنا ما إذا كان إميل البستاني قد لاقى قدره، أم أنه مات قضاءً وقبل قدره المحتوم.

القدر أعمى

نشرت مجلة الكنانة سنة ١٨٩٥ مقالاً عن آلهة الأقدمين، ذكرت فيه أن «القدر» هو أقدم الآلهة إلاّ أنهم كانوا لا يقدمون إليه القرابين بغية استرضائه كسائر الآلهة، لأن أحكامه كانت ثابتة لا تتبدل، وكانوا يصورونه معصوب العينين - لأنه أعمى لا يرى شقاء البشر ولا يشعر بقساوة أحكامه عليهم - ويصورون بيده كتاباً كتبت فيه أقدار البشر.

مات حتفَ أنفه

في أثناء تحقيق تاريخي قمنا به مع بعض رواة الأخبار حول مصرع آل الحمرا، في رأس بيروت، في القرن الماضي، قال أحد الرواة في معرض الحديث: «وضربه بالعصا على رأسه فما عطس ولا عطسة»، وهو يعني طبعاً أنه مات فوراً.

قلنا: «وما شأن العطسة بالموضوع»؟ أجاب: «لو أن الرجل مات موتاً طبيعياً لخرجت روحه من أنفه، وربما بعطسة كما يحدث أحياناً، إلاّ أنه مات بضربة عصا على رأسه فتح فمه على أثرها، فخرجت روحه من فمه، ولذلك يقال في مثل هذه الحالة: «ما عطس ولا عطسة»، أي أنه مات فوراً».

وهكذا نقلنا الراوي، ببساطة، من موضوع إلى موضوع آخر، وفي هذا المجال لا بد من الإشارة إلى أن الشعوب السامية كانت قد خلطت بين مفهوم النَّفْس والنَّفَس، ولذلك ترادفت هاتان الكلمتان في جميع اللغات السامية.

فقد اعتقدت الشعوب السامية أن النَفَس هو أحد مظاهر النَّفس التي تستقر في صدر الإنسان، فإذا خرجت النَّفْس

انقطع النَّفس، ولا يكون خروج النَّفَس إلاَّ من الأنف أو من الفم، ولذلك يقال، لغوياً، عَمَن مات موتاً طبيعياً، انه مات حتف أنفه، أي بواسطة أنفه.

وقد جاء في كتاب رياض الصالحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس».

وتشميت العاطس، لغوياً، يعني، طلب الرحمة له من قِبَل الحاضرين، إذا عطس أمامهم.

هذا مع الإشارة إلى أننا، في مجالسنا، إذا عطس أحد الحاضرين، فإنه يقول غالباً: «يا رب فرجك»، فيقول الحاضرون «نشو» وهذه الكلمة تعني: لغوياً، توقع خبر سار.

ويحدث أحياناً أن يكون أحد الناس مسترسلاً في حديثه فيعطس أحد الحاضرين، فيقول المتحدث «بشهادة ابن حلال»، أي أنه يعد العطسة بمثابة شهادة على صدق كلامه، وقد تمّت لهذه الغاية بقدرة الله تعالى.

بَيْن العلم والإيمان

الدكتور نقولا شاهين عرفناه من علماء الفلك، وإذا به كذلك من أسياد الكلمة، فخلال عدة أيام في أواسط شهر نيسان سنة ١٩٧٠، توالى ظهور السيدة العذراء فوق قبة كنيسة السريان في المصيطبة، وكان المؤمنون من أبناء هذه الطائفة، يشاهدونه، من وقت إلى آخر، فيركع بعضهم تخشعاً ويبكي البعض الآخر فرحاً، فيما كان يأخذ شبابهم بإطلاق الرصاص اعتزازاً بكنيستهم التي اختصتها السيدة العذراء بهذه الالتفاتة الكريمة.

وما أن علمت شركة تلفزيون لبنان والمشرق بهذا الحدث العظيم، حتى هرع مندوبها ومصوروها إلى حي السريان لالتقاط المشاهد وتقصّي الحقائق، وقد اصطحبوا معهم الدكتور نقولا شاهين، أستاذ علم الفلك في الجامعة الأميركية في بيروت.

في مساء يوم ١٦ ـ ٤ ـ ٧٠، قدمت إلينا شركة التلفزيون ريبورتاجاً عن الحادث، تضمن عرضاً مصوراً للكنيسة وقبّتها، دون أن يظهر ـ بالطبع ـ طيف السيدة في هذه الصور، ثم

تلت ذلك عدة تصريحات للذين أكّدوا مشاهدة السيدة العذراء، وظهر في النهاية سيادة مطران السريان ليؤكّد لنا، برصانة ولباقة، أنه شاهد طيف السيدة العذراء فوق قبة كنيسته.

إذن ماذا عسى أن يقول لنا الدكتور شاهين، على شاشة التلفزيون، بعد سماع هذه الشهادات المفعمة باليقين، دون أن يتخلى عن مزايا رجال العلم، ودون أن يمسّ شعائر رجال الدين؟

قال الدكتور شاهين أولاً إنه لبث واقفاً مع المؤمنين طوال ثلاث ساعات فلم يشاهد طيف السيدة العذراء.

فقال مندوب التلفزيون إنه هو كذلك لم يرَ طيف السيدة العذراء، كما رآه سائر الناس، إلاّ إنه سأل الدكتور شاهين قائلاً: «ولكن ألم تلاحظوا كما لاحظتُ أنا أن شيئاً ما كان قد تغيّر في قبّة الكنيسة؟».

فأجاب أنه لم يلحظ أبداً أن شيئاً ما كان قد تغير في قبة جرس الكنيسة.

فسأله عندئذٍ مندوب التلفزيون: «وكيف تفسرون إذن عدم رؤيتكم طيف السيدة العذراء، في حين رآه جميع الحاضرين؟».

أجاب الدكتور شاهين قائلاً: إن الإنسان إذا حدق ببصره

مدة طويلة في مكان معين، فإنه يرى أحياناً خيالات من نور في ذلك المكان؛ ولاسيّما إذا مرّت غيوم في السماء فأحدثت تحولاً بكمية النور فوق ذلك المكان.

ثم استدرك وقال: «نحن نعلم أن دستور الإيمان عند المسيحيين يبدأ بما يلي: «نؤمن بآله واحد آب ضابط الكل خالق السماء والأرض كل ما يُرى وما لا يُرى إلخ...».

وأضاف قائلاً: «وهذا يعني أن المسيحيين يؤمنون بما «لا يُرى»، وهذا «الما لا يُرى»، يراه المؤمنون بعين الإيمان دون سواهم، ومن جهة ثانية فإننا نحن رجال العلم نؤمن كذلك بوجود أشياء لا تُرى، كالذرة، مثلاً، ولكننا نراها دون سوانا بعين العلم والتجربة».

حرّاس الهيكل

سمعت في أحد الأيام، نقاشاً بين رجل محافظ، وبين ابن له متطرف، فقال الرجل أخيراً: «يا ابني كبّر عقلك، المسيح منذ ألفي سنة حاول أن يهدم الهيكل، فصلبه حراس الهيكل وبقي الهيكل قائماً. ومنذ أقدم العصور إلى الآن، يصلب حراس الهيكل، باستمرار، كل مسيح يدعو إلى هدم الهيكل، ويبقى الهيكل قائماً إلى الأبد، لأن الإنسان لا يقدر أن يعيش بدون هيكل».

مَعركَة في قرْية

اشتهر شبان قرية القليعة، في الجنوب، بالبسالة وورد التحدي بالتحدي.

بعضهم «عواقرة» الأصل، انحدر أجدادهم من بلدة العاقورة، إحدى أعرق مقالع الرجال في لبنان.

كنيستهم تشمخ في وسط قريتهم، وشفيعهم مار جريس عليه السلام.

هل اختاروا «الخضر» شفيعاً لهم لأنهم يتعشقون البطولة، أم تراهم أخذوا أخلاق الفرسان عن شفيعهم راعي الحصان؟

سنة ١٩٢٠ اجتاحت لبنان الجنوبي موجة من الاضطرابات، وتعرَّض المسيحيون فيه لبعض المضايقات والاعتداءات.

وفي ساعة مبكرة من يوم ١٠ حزيران، من تلك السنة، تألَّبت أعداد غفيرة من عرب الفضل في الجولان، وعرب

الغوارنة في الحولة، وأهالي منطقة العرقوب وبعض قرى جَبَل عامل، وذلك في هجومٍ كاسح على جديدة مرجعيون، مقر الحامية الإفرنسية، فاحتلُّوها، وقد قتل، آنذاك، عدد من أبنائها، واستهدفت بيوتها للنهب والحرق والتخريب.

وحاول المهاجمون أن يجتاحوا، بطريقهم، قرية القليعة - المجاورة لجديدة مرجعيون - لما عرف عن سكانها من ولاء للإفرنسيين، فدافع هؤلاء عن قريتهم بشجاعة فائقة، وردوا المهاجمين على أعقابهم، وهذا ما أثار إعجاب الجنرال غورو - القائد العام للقوات الإفرنسية في الشرق - فحضر بنفسه إلى القليعة مهنئاً.

وقد اطّلعنا صديقنا المؤرخ الشيخ سعيد فرنسيس، من وجهاء قرية القليعة، على مخطوطة له أرَّخ بها تلك الأحداث إبان وقوعها، وهو يصف لنا فيها كيف هبَّ شبان القليعة للدفاع واتخذوا مواقع لهم وراء جدران الحواكير، فيما لاذ الشيوخ بعرين شفيعهم مار جريس، وحملوا صورته، وأخذ رجل اسمه «أبو رايق» بالحداء، بصوت جهوري، والرجال يرددون وراءه، مع قرع أجراس الكنيسة، وذلك لتقوية معنويات الشبان المدافعين وراء متاريسهم:

القليعه قلعه محصّنه

ومحصّنه بأبطالها

بوجودك يا «راعي الحصان»
العـربـان ذبحـنـا رجالها
احمـي جميـع شـبّـانـنـا
يـا خضـر عليـك السلام
يا «شبعا» بـدي أخـربـك
واسبي حـريم «كفرحمـا»

ويذكر كاتب المخطوطة أن النساء كنَّ ينقلن الماء والخرطوش إلى الشبان في المتاريس، تحت وابل من رصاص الأعداء، وأن أحد شيوخ القرية ـ الياس حنا ـ كان يصيح قائلاً: «يا شباب لا تخافوا هذا ملبّس مش رصاص»، وأن ثلاثة من الشبان هم: الياس فياض أبي طايع والياس طنوس مرقص وشاب ثالث، خرجوا من متاريسهم وشنوا هجوماً معاكساً على الأعداء فشتتوا شملهم.

ويقول حرفياً: ... «جرب الثوار دخول القليعة وشنّوا ثلاث هجمات عنيفة، غير أنهم تراجعوا خائبين، وقد أخبر مئات من هؤلاء وعلى مسامعنا أيضاً، في ما بعد، على أنهم كانوا يشاهدون فارساً لا يشق له غبار معتلياً صهوة جواد أزرق، معتقلاً رمحاً ينقضّ على صفوفهم، ويرمي الذعر والهلع في قلوبهم. وهذه الرواية أشهر من أن تذكر، نظراً لشهرتها لدى الخاص والعام؛ خاصة لدى البدو، ويعتقدون

كل الاعتقاد على أن هذا الفارس، ما هو سوى الخضر «أبو العباس».

ويذكر المؤرخ أخيراً أن المفوضية العليا الإفرنسية أرسلت إلى أهالي القليعة شهادة بطول ذراع وعرض ذراع، ومكتوبة باللغتين العربية والإفرنسية ويقول إن لديه نسخة عنها وهذا نصها:

« إن الجنرال غورو القومسيار العالي للجمهورية الفرنسية في سوريا وكيليكيا، والقائد العام لجيش الشرق يبلّغ مزيد تهانيه لأبطال القليعة على ما أبدوه من شجاعة وبسالة في موقعتي ١٣ مارس و ١٥ حزيران سنة ١٩٢٠ فإن جموع المتاولة قد تكبدت على أبواب القليعة خسائر دامية ونوائب فادحة بفضل الشجاعة التي أظهرها أبطال القليعة وزعيمهم إبراهيم فرنسيس».

حجاب لمَرَض «السرساب»

ذهبت يوماً إلى بلدة شبعا، برفقة أحد الأطباء، الذي كان يتولى التطبيب فيها يوماً في الأسبوع.

وفيما كنا في بيت أحد وجهاء البلدة دخل رجل وقال إن كنّته التي لم يمضِ على زواجها بابنه أكثر من أسبوع، أصيبت بمرض «السرساب»، «فتبحلصت» عيناها، «وانربط» لسانها، وقلَّ أكلها ونومها وكلامها، «ولا بترد ولا بتصد»، ولذلك فهو يطلب من الحكيم دواء يشفي كنّته من مرض السرساب.

فأخذ الدكتور حنجوراً وسكب فيه سائلاً أسود، ثم سائلاً فاقع اللون، وأضاف إليهما مسحوقاً أبيض، ثم ملأ ما تبقّى من الحنجور بسائل شفاف، وأعطاه إلى الرجل، بعد أن كتب عليه «ملعقة بعد الأكل ثلاث مرات يوميّاً».

وبينما كان الدكتور يمزج عقاقيره، كان صاحب البيت يتحدث مع الرجل بصوت خافت غير مسموع، إلاَّ أنه كان يفعل بكلتا يديه إشارات معبرة، فهمنا منها أنه يريد أن يعلم

عمّا إذا كان الرجل متأكداً من أن ابنه قد قام ويقوم بواجباته الزوجية مع زوجته.

فيجيب الرجل بصوت مسموع: «جربنا شرش الزلّوع ففعل أكثر من اللزوم»، والزلّوع هذا هو نبات ينبت في جبل الشيخ، تعصر جذوره، بعد غليها جيداً، ويعطى «زومها» إلى المصابين بضعف جنسي، فيفعل أحياناً أكثر من اللزوم، كما قال الرجل.

وعندما دفع الرجل ثمن الدواء وهمَّ بالانصراف، قال له صاحب البيت: «إن دواء الحكيم ما بعده دواء، ولكن، إذا لا سمح الله وبقي السرساب «متحطط» على الحرمة، فما عليك إلاّ أن تكتب لها حجاباً عند شيخ قرية الغجر، لأن مرض السرساب لا تفكّه إلاَّ قدرة الله والكتاب». والكتاب هنا هو الحجاب، والله على كل شيء قدير.

«الجبل لبس قبعو الله ينجينا من قساوة طبعو»

على رأس جبل الشيخ، أعلى قمم حرمون، المطلّ على دمشق، بقايا بناء قديم ربما كان معبداً للشمس أو هيكلاً للإآله إيل، وهو عبارة عن أساس محفور في الصخر وحجارة ضخمة منحوته تتراوح أحجامها بين متر وثلاثة أمتار مكعبة، ويقول أبناء المنطقة إنها بقايا قصر «شبيب التبّعي».

وكما فعل النمرود، في سالف العهود، فحاول أن يبني برجاً يكون رأسه في السماء وهو ما سمّي «برج بابل» - لأن الله بلبل ألسنة العمال فصاروا يتكلمون بألسنة ولغات متباينة فلا يفهم أحدهم ما يقول الآخر وكفوا عن بناء البرج ومن هنا نشأ تعدد اللغات بين الشعوب - هكذا فعل شبيب التبّعي عندما أراد أن يتحدى الله سبحانه وتعالى.

يقال إن شبيب هذا شرع يبني على رأس جبل الشيخ برجاً تطاول على حدود السماء، فأنزل الله غمامة غطت رأس الجبل وحجبت الرؤية عن عيني «التبعي» حتى عجز عن متابعة بناء البرج فنقل حجارته إلى سفح الجبل الشرقي حيث

بنى بها «قلعة جندل»، التي ما زالت قائمة حتى الآن والتي يقال إن حجارتها تشبه حجارة قصر شبيب إلى حد بعيد والله أعلم.

ويضيف الراوي أن الغمامة هذه ما زالت نذير شؤم ودليل غضب وقساوة طبع بنظر أهل المنطقة، فكلما غطت الغمامة رأس الجبل حدثت رعود وعواصف حتى صاروا يقولون كلما شاهدوا الغمامة على رأس الجبل: «الجبل لبس قبعو الله ينجينا من قساوة طبعو».

عكاء، حذاء صور

قدم إلى بلادنا، في منصف القرن الحادي عشر، رحالة فارسي يدعى نصري خسرو، وكتب كتاباً عن مشاهداته، ومما جاء فيه عن طرابلس: «أهلها على مذهب الشيعة وعددهم عشرون ألفاً، وفيها معمل لصنع ورق الكتابة مثل معمل كاغد في سمرقند، ويقول ان أسواق صيدا حسنة ومزدانة بالحلي كأنها في انتظار أحد الملوك فسأل عن الخبر فكان الجواب أن المدينة على هذه الصورة أبداً».

وجاء في كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» لشمس الدين المقدسي، عن مدينة صور: «وبينها وبين عكا شبه خليج ولذلك يقال عكاء حذاء صور».

إلهي ألبسني هيبةً من عندك

مَن شيّد قلعة بعلبك؟ مَن بنى حجارتها الهائلة الحجم مداميك في غاية الاتقان، وحمل أعمدتها الباسقة من مصر ورفعها في مدينة الشمس لتعمد السماء، كما قال سعيد عقل في تأبين إميل البستاني:

« يا ستةً في بعلبك تَهامسون فهل جديدُ
أنا قلت قد تعبت بحمل المنتهى هذي القدودُ
يا ستةً عمدوا السما قد جاء سابعكم فزيدوا»

لم يستطع أحد حتى الآن أن يجيب على هذا السؤال جواباً علمياً مقنعاً. يقول فيليب حتّي في كتاب «لبنان في التاريخ» بظُرف لا شائبة عليه: «ونسبوا بناءها لسليمان. إذ مَن سوى مسخر الجن يستطيع أن يقوم بهذه المعجزة». وقد نقل حتّي ذلك عن الإدريسي لياقوت وعن معجم البلدان للمقدسي.

ونحن المأخوذين بجمال مداميك الفكر وروعة أعمدة

الحكمة» لا تهمنا معرفة مَن بنى قلعة بعلبك بقدر ما تهمنا معرفة أساس علاقة سيدنا سليمان بالجنّ.

تقول التوراة: «وأعطى الله سليمان حكمةً وفهماً كثيراً جداً. وفاقت حكمة «سليمان جميع بني الشرق وكل حكمة مصر. وتكلَّم بثلاثة آلاف مثل، وكانت نشائده ألفاً وخمساً. وتكلَّم عن الأشجار من الأرز الذي في لبنان إلى الزوفا النابت في الحائط. وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك».

وجاء في كتاب المستطرف في كل فن مستظرف للشيخ شهاب الدين الأبشهي ما يلي:

«قيل لمّا سخّر الله تعالى الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام، نادى جبريل عليه السلام: «أيها الجن والشياطين أجيبوا نبيّ الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى، قال: فخرجت الجن والشياطين من الجبال والكهوف والغيران والأودية والفلوات والآجام وهم يقولون: «لبيك» «لبيك»، والملائكة تسوقهم سوق الراعي للغنم حتى حشرت بين يدي سليمان عليه الصلاة والسلام طائعة ذليلة، وكانوا إذ ذاك أربعاً وعشرين فرقةً، فنظر إلى ألوانها فإذا هي سود وشقر ورقط وبيض وصفر وخضر، وعلى صُوَر جميع الحيوانات، ومنهم من رأسه رأس الأسد وبدنه بدن الفيل، ومنهم من له خرطوم وذنب، ومنهم من له قرون وحوافر، وغير ذلك من

الأنـواع، قال: فعنـد ذلك تعجب نبي الله سليمـان عليه الصلاة والسلام من هذه الأشكال وسجد شاكـراً لله تعالى وقال: «إلهي ألبسني هيبة من عندك».

وعليه فإننا من المؤمنين بحكمة سليمان وعجائب الجان إلى أن يثبت العكس بالحس والبرهان.

قهوة البن حرامٌ

مما يروى أن مجلساً ضمَّ الشيخين يوسف الأسير وناصيف اليازجي حيث قدمت إليهما القهوة، فامتنع الأسير عن تناولها وقال على البداهة:

قـهـوة الـبـن حـرامٌ
قـد نهى النـاهـون عنـها

فما كان من الشيخ اليازجي إلاَّ أن تناول فنجاناً وقال:

كيف تـدعـوهـا حـرامـاً
وأنـا أشـرب مـنها؟

هذا مع العلم أن القهوة كانت محرّمة في بعض الأقطار العربية حتى أواخر القرن الماضي، وقد ذكر سلامة موسى في كتابه «حرية والفكر وأبطالها في التاريخ» نقلاً عن كتاب لعبد القادر محمد الأنصاري، «إن شارب القهوة يُحشر يوم القيامة ووجهه أشد سواداً من قعور أوانيها».

«أمَّة الثقلين»

سنة ١٩٣١ تسللت شرذمة من الجن إلى مقبرة صيدا واعتصمت فيها، فإذا جَنَّ الليل جن جنون الجن وصاروا «شي بيعـوي وشي بينوي، وشي بيـطفي وشي بيضـوي» فقلقت الأفكار وتضخمت الأخبار حتى صـار بعض الناس يتفادون الخروج من منازلهم في ساعة متأخرة من الليل.

وفي ذاكرتي الآن إسم لعالم جليل جاء من دمشق وأخذ يعمل على تنوير الأفهام وجلاء الأوهام، بما ملك من إيمان وما أوتي من بيان ـ وقيل كذلك يومئذٍ ـ بما عنده من سلطان على طوائف الجان، فأمرهم بالانتقال إلى مكان آخر.

وفي مصر، منذ نصف قرن تقريباً أقيمت دعوى جنائية على الجن، وتمّت أعمال التحقيق والملاحقة حسب الأصول، وجاء أخيراً في قرار النيابة العامة، أنه تبين بنتيجة التحقيق أن الأدلة الثبوتية غير كافية، ولذلك تقرر وقف ملاحقة الجن بالتهمة المنسوبة إليه. حتى ذلك الوقت كان الإنس والجن ـ قطبي أمة الثقلين ـ سواسية بنظر القانون.

وفي بيروت يروي المتقدمون بالسن أخباراً كثيرة ومثيرة عن الجن، أحدهم يؤكد لي أنه رآه مراراً، فكان يظهر أولاً بشكل إنسان ثم يتقلص ويلتف على نفسه ويدخل حتى بين حجارة «الربابيع». أما أنثى الجن فتكون «عيونها زرق وسنانها فرق» وتبدو عارية كما خلقها الله، إلاّ أنها تستر عورتها بشعرها المتدلي فلا يرى الرائي «شيئاً»، فإذا ذكرنا إسم الله توارت عن الأنظار.

وحدث في أواخر القرن الماضي أن احتلَّت فرقة من الجن رأس شارع زقاق البلاط، وصارت تعتدي على عابري السبيل، حتى اضطر محي الدين حمادة إلى تعيين حرس خاص في ذلك المكان.

ويذكر أحد كبار معمري رأس بيروت أن الجن كانوا يأتون إلى فرن الحمرا، بعدما يغلقه صاحبه، في ساعة متأخرة من الليل، فيخبزون خبزهم فيه وينصرفون قبل طلوع الفجر، حتى أن المار بقرب الفرن، بعد منتصف الليل كان يسمع غالباً صوت «الطبطبة».

ومنذ سنوات قليلة أشيع أن البيت الذي كان موجوداً مكان سينما «ألدورادو» حالياً، في شارع الحمرا، كان «مسكوناً» بالجن، وكذلك إحدى «الفيلات» الفخمة قرب الروشة التي هدمت مؤخراً وأنشئت مكانها محطة بنزين.

وحدث يوماً أن ذهبت مع زميل لي، بحكم عملنا في

مصلحة التعمير، إلى إحدى قرى منطقة جزين، وفيما نحن عند مختار القرية، دخل رجل متقدم بالسن، وبعد أن سلم واتخذ له مكاناً بين الجالسين سأل عن «الأفندية»، فقال المختار: «الأفندية من موظفي التعمير».

فنهض الرجل عندئذٍ وقال: «لقد استملكتم أرضي وعمرتم فيها عدة بيوت لإسكان منكوبي الزلزال، فلماذا لم تدفعوا لي ثمنها حتى الآن؟».

وكنت لا أعرف شيئاً عن موضوع تملك الأرض، وأردت أن أتخلص منه بداهةً، فقلت: «إننا سنرد لك الأرض وما عليها من بيوت، لأن هذه الأرض. «مسكونة بالجن» ولذلك يرفض الأهالي أن يسكنوا فيها».

فانتفض وقال: «الجن! أنا الذي أحضرت الجن وأسكنته في الأرض، وقد كلفني ذلك عناءً كثيراً، ولن أخرجه منها إلاّ بعد أن تدفعوا لي ثمنها».

فأدهشتني سرعة خاطر الرجل وطرافته وقلت له: «على سيرة الجن أريد أن أعلم ما إذا كان الجن لا يزال موجوداً في هذه البلاد، وما إذا كان أحد شاهده في المدة الأخيرة؟».

فأجاب بجد ورزانة: «الجن، يا أفندي، انقرض من بلادنا، ولكن اسألني «ليش»؟ ولما كان الموضوع طريفاً والحديث شيّقاً، فقد امتثلت لأمره وسألته «ليش». فأصلح من قعدته وتنحنح لتنظيم دوزان صوته وقال: «بلادنا، يا

أفندي، بلاد طوايف، وكل واحد فيها لازم ينتمي لطايفه معينه وإلّا ضاع حقو واختفى ذكرو. وجماعة الجن من قلة سيسرتهم ما عرفوا ينتمو ولا لطايفه، لذلك انقرضوا. أما لو كانوا جماعة الجن من طايفتنا، كنت أنا أكّدت لك الآن أني رأيتهم الليلة الماضية وسألوني عن حضرتك مثلاً، وكان، هوني، أبونا الخوري بيأكّد أن الجماعه بيجو لعندو، كل ليله يطلبو بركتو، وكان مختارنا، الله يطول عمرك وعمرو، بيعطيهم تذاكر هويه عليها صور شمسيه وطوابع أميريه، وبيزيد عدد الناخبين عندنا شي أربع خمس ميه، وفهمكم كفاية».

بالشنابر والعنابر

عاشت في قريتي امرأة اسمها «بدرا» كانت تروي أنها حضرت في إحدى الليالي عرساً للجن وكانوا يغنون فيه:

«بنت حنا لابن ونا
طيبوها وطابت
بالشنابر والعنابر
والطيوب الفايحه
بنت عنتر لابن فنتر
جوزوها مبارحه»

إذا امتلأت البطون فرغت العقول

عندما تولى فارس بك الخوري رئاسة مجلس الأمن سنة ١٩٤٧، هزَّ الاعتزاز مشاعر مواطنيه من أبناء قرية الكفير الموجودين في الولايات المتحدة الأميركية، وأخذوا يتبارون في توجيه الدعوات إليه، لإقامة الولائم على شرفه، فكان يطلب من كل واحد منهم أن يحدد المبلغ الذي يريد أن يصرفه على الوليمة، ثم يطلب منه أن يعفيه من الدعوة ويتبرع بالمبلغ لمشروع إنارة الكفير بالكهرباء - وقرية الكفير في جنوب لبنان هي مسقط رأس فارس بك الخوري -

وحدث أن أحد المغتربين أصرَّ على دعوته إلى وليمة في منزله وتعهد، بنفس الوقت، أن يتبرع بمثل أكلافها للمشروع المذكور، فروى له فارس بك عندئذٍ، قصة المرسل الأميركي الذي جاء إلى إحدى القرى السورية، لإنشاء مدرسة فيها، فرفض أبناؤها أن يباحثوه بالأمر إلّا بعد أن يصرف في ضيافتهم ثلاثة أيام، وفقاً للتقاليد العربية النبيلة، ولكن معدة الرجل لم تستطع أن تتحمل وطأة الضيافة العربية أكثر من يومين وَلّى بعدها عائداً من حيث أتى، وبقيت القرية بدون مدرسة، لأن الاهتمام بالبطون يحول دون الاهتمام بالعقول».

«ديك محشي والسلام»

يحكى أن رجلاً من وجهاء مدينة بيروت، مرَّ ذات مساء في إحدى قرى منطقة مرجعيون، وعرج ليبيت عند مختار الضيعة، فطلب المختار من زوجته أن تهيِّىء عشاءً للضيف الكريم: «مقلى كشك بقاورما».

فسأل الرجل: «ما هو هذا «الكشك بقاورما» الذي تريد أن تهيِّئه لي؟».

أجاب المختار: «الكشك بقاورما» طعام طيب النكهة يدفىء المعدة ويشدد الركب المرتخية، ونحن نصنعه هنا بأنفسنا». وانبرى يشرح طريقة صنعه: «نأخذ القمح أولاً، ونسلقه جيداً ثم نفلشه على السطح إلى أن يجف، ثم نجرشه ونغربله وننشفه فيصير برغلاً، ثم نروِّب اللبن ونتركه حتى يحمض، ونمزج بعد ذلك البرغل باللبن المحمض ونتركه حتى «يُوَرْوِر»، ثم نفلشه على شراشف نظيفة في الشمس حتى يجف».

وفيما كان المختار يكشف حَسَب الكشك ونَسَبه، كان

الوجيه البيروتي يصغي بفارغ الصبر، ويبلع ريقه على مضض بين الفنية والأخرى، فما زال الحديث عند «أولاً»، ولا بد أن تأتي «ثانياً» و «ثالثاً» وهلم جراً، وفكر أخيراً بمعدته وهل يمكن أن تتحمل وطأة الجوع إلى أن يتم إنجاز جميع هذه الأمور في ذلك المساء.

وتابع المختار كلامه: «وعندما يجف الكشك جيداً نفركه بالأيدي فركاً متواصِلاً حتى ينعم، ثم ننخله حتى يصير مثل الطحين. هذا بالنسبة إلى الكشك، أما بالنسبة إلى القاورما، فإننا نذبح الخروف بعد أن نعلفه جيداً حتى يسمن، ونجرم الهبر ونفرمه «رأس عصفور» ونملحه ونضعه جانباً، ثم نهرم الدهن ونسلقه حتى يصير مثل «جانح الدبور» فنضع عندئذٍ . . .

ففرغ صبر الرجل وصاح: «ما في لزوم تتغلبوا كل هالغلبه، ديك محشي والسلام».

في أيام حداثتي كانت هذه القصة من القصص الطريفة، لأن الكشك كان في ذلك الزمان، مأكول الفقراء، أما الآن وقد انعكست الآية، وصار الدجاج مأكول الفقراء والكشك من المآكل النادرة، فقد فقدت هذه القصة طرافتها، ولكنها لم تفقد دلالتها.

يُسرى اللبنانيَّة ضاعَت في باريس ١٨٨٩ عندما أخذها أسعَد الراسي ضمن فرقته الفولكلوريَّة(١)

نشر «نهار الرياضة والتسلية» في عدد ٢٢ آذار ١٩٧٠، حديثاً شائقاً للمؤرخ الباحث الأستاذ لحد خاطر. تناول فيه نشأة الفولكلور اللبناني، وذكر أن أول فرقة فولكلورية في لبنان، هي الفرقة اللبنانية، التي ذهبت إلى معرض شيكاغو سنة ١٨٩٧ برئاسة أمير الناي سليمان أبو حبلة.

وبما أن المعلومات المتوافرة لديَّ ترجح أن أول فرقة فولكلورية لبنانية كانت تألفت قبل ذلك بنحو عشر سنوات، أقدّم هذه المعلومات، إلى الأستاذ خاطر لعله يرى من المناسب أن تضم إلى مجموعته التاريخية.

ففي سنة ١٨٨٩ احتفلت فرنسا بمرور مئة سنة على انتصار الثورة الفرنسية، فأقامت ما سمي يومئذٍ، معرض باريس الدولي، الذي كان من أبرز الأحداث، أواخرَ القرن الماضي.

وساعدت الانفراجات السياسية التي خيّمت في أجواء

(١) نشرت في ملحق جريدة النهار بتاريخ ٥/٤/١٩٧٠.

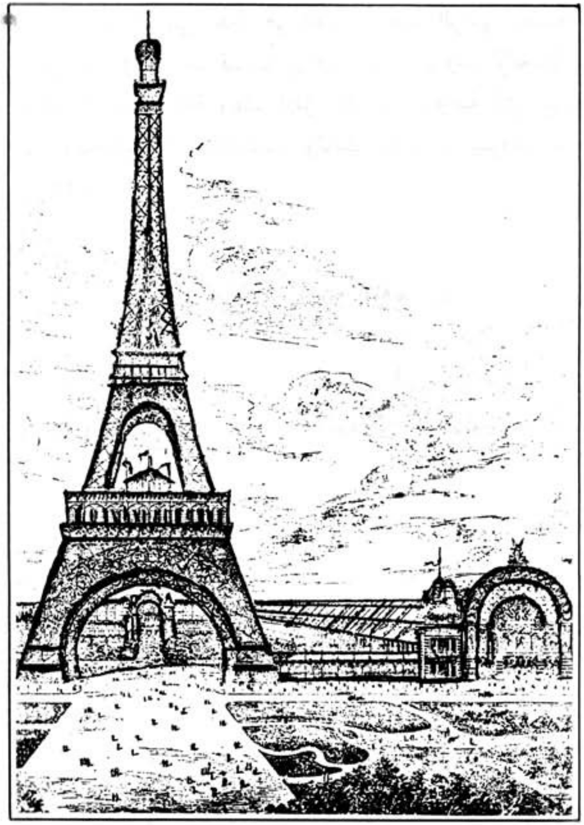
العالم، ذلك الوقت، على إنجاح معرض باريس، باشتراك أكثر الدول فيه، ومنها الدولة العثمانية، التي كانت إحدى الدول العظمى، فكان الجناح العثماني أوسع أجنحة المعرض ولا أقول أعظمها.

واستغرق بناء منشآت المعرض أكثر من ثلاث سنوات، كان أهمها برج «إيفل» الشهير، الذي دعي بإسم واضع تصاميمه المهندس أوغيست إيفل، فكان أكبر الإنجازات ومن معجزات الفن حتى يومنا.

وكان أسعد الراسي ألف فرقة للغناء والرقص الشعبي، فحمل فرقته وسافر بها إلى باريس، حيث احتلَّ أحد أقسام الجناح التركي في المعرض.

وكانت فرقته تضم بعض المغنين وعازفي الآلات الشعبية، منهم عازف الرباب محمد صبرا، وبعض الفتيات اللواتي كنَّ يجدن الدبكة وسائر ألوان الرقص البلدي، أضف اثنتين أو ثلاثاً من النسوة اللاتي كنَّ يخبزن الخبز المرقوق على الصاج وهنَّ ينشدن أناشيد ريفية، وأكثر هؤلاء من قرى منطقة البقاع الغربي.

ولا نستطيع الآن أن نحكم على مقدار نجاح فرقة أسعد الراسي من الناحية الفنية، إلّا أننا نعلم أن أسعد الراسي تعرّض لخسارة فادحة، فاضطر أبوه الحاج عبد الله الراسي



برج إيفل
أعظم منجزات العلم في القرن الماضي

إلى بيع أملاكه في إبل السقي إلى شاهين بـك مكاريـوس ومخايل يعقوب وفارس سمعان الراسي، كي يفي ديون ابنه، بعد أول مغامرة فولكلورية له، وقبل أن تكون هذه الكلمة الغربية دخلت في قاموس الفن اللبناني.

ومما زاد الطين بلة أن أسعد الراسي، لما قام بتسفير فرقته إلى بيروت، بقي في باريس لأيام، مع أخويه يوحنا ويوسف لتصفية بعض الذيول.

وعندما عاد إلى لبنان وجد إحدى فتيات فرقته، وكان اسمها «يُسرى» لم تعد إلى ذويها الذين هبوا يطالبونه بها، فاضطر إلى إعادة أخيه يوحنا إلى باريس باحثاً عنها.

والمعلومات غير متوافرة لدينا عن مصير يسرى، وكل ما نعرفه أن أسعد الراسي، الذي كان من شعراء البداهة، ودّع أخاه يوحنا، قبل سفره إلى باريس بهـذه الأبيات الثـلاثة، نذكرها هنا لطرافتها قال:

أخي صِحْ في فرنسا أين «يسرى»
وقلْ يا برج «إيفل» أنت أدرى
بـذلنا في سبيلك كـل غـالٍ
وقـد جـازيتنـا نصباً وعسـرا
وإن قـال الـصـدى ضـاعـت وراحت
فشمِّر في مياه «السـين» وا . . .

وأسعد الراسي هذا هو القس أسعد الراسي نفسه؛ الذي صار في ما بعد قسيساً وراعياً لكنيسة بيروت الإنجيلية، فنظَّم شؤون الطائفة ونظم أجمل الترانيم الروحية التي يترنم بها الإنجيليون في كنائسهم، وكانت وفاته في بيروت سنة ١٩١٤.

بالشكر تدوم النعم

من التقاليد المتبعة عند الدروز، أنهم إذا جلسوا إلى إحدى موائد الطعام، طلبوا «الحلم» من أكبر الموجودين سناً أو مقاماً.

و «الحلم» عند الدروز هو نوع من الابتهال إلى الله والاعتراف بفضله.

وحدث يوماً أن حضر الأمير عادل أرسلان، الذي نودي به يوماً أميراً للبيان، إحدى الولائم، فطلب إليه الحاضرون أن يحلم بكلمة فقال:

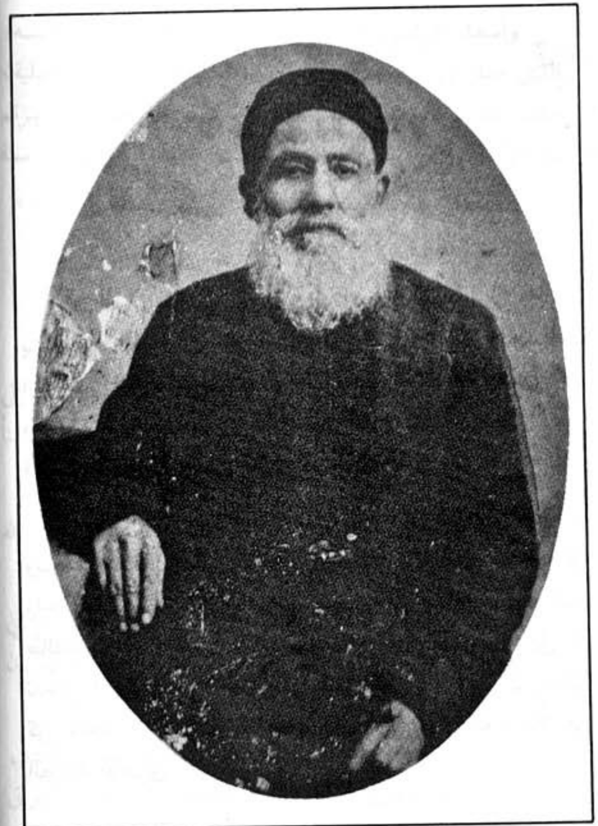
«سبحان من أوجد السماء بلا عُمَد، والفضاء بلا مدد، والبحار بلا جَمَد، والنجوم بلا عدد، سبحان من قسَّم الأرزاق ولا ينسى من فضله أحد».

لا نصَارى ولا إسْلام

في القرن الماضي لم يكنَ في بيروت فنادق بل خانات ينزل فيها المسافرون مع خيلهم ودوابهم. وكان أشهر تلك الخانات: خان أنطون بك وخان فخري بك[١]، اللذين كانا متجاورين وموجودين في المحلّتين المعروفتين باسميهما الآن. قرب نهاية شارع اللنبي.

وكان صاحب الخان الأول مسيحياً والثاني مسلماً وبحكم عداوة الكار، تنافس الرجلان واختلفا، وأخذ كل واحد منهما يطلق الإشاعات ضد زميله ويؤلب معه أبناء طائفته، حتى وقعت عدة حوادث طائفية بسببهما، إلى أن تدخّل أخيراً بعض العقلاء وحكموا على الرجلين أن يستقل كل واحد منهما بأبناء طائفته، فلا يُنزل في خانه رجلاً من الطائفة الأخرى.

(١) هما أنطون ثابت وفخري بك رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية في ذلك الوقت.



الحاج عبد الله الراسي
لا نصارى ولا إسلام

وحدث في ذلك الوقت أن نزل إلى بيروت عمّنا الحاج عبد الله الراسي من إبل السقي، وتوجّه إلى خان أنطون بك ليبيت فيه، فسأله صاحبه عن طائفته، فقال: «بروتستنت»، فقال صاحب الخان: «ما لي ولك يا رجل، اذهب إلى خان فخري بك».

وما أن ذهب الحاج عبد الله حتى جاء من يقول لصاحب خان أنطون بك إن جماعة البروتستنت هم طائفة جديدة من النصارى وليسوا مسلمين كما ظنَّ خطأ.

فاحتج صاحب خان أنطون بك على صاحب خان فخري بك. لأنه أنزل في خانة رجلاً مسيحياً، فقال هذا: «إن البروتستنت لا هم من النصارى ولا هم من المسلمين، ولهم الحق أن ينزلوا حيث أرادوا».

واحتكم الرجلان إلى أحد المراجع الحكومية، ولعله جاويش مخفر تلك المحلة فقال «بروتستنت! لا عندك ولا عنده، بل عندي في السجن».

وهكذا بقي عمنا المسكين في السجن، لأنه لم يكن من النصارى ولا من المسلمين، بل من جماعة البروتستنت الضالين، إلى أن وجد من يتوسط له، أو حتى دفع المبلغ المرقوم.

مذهب وسط بين الكثلكة والإسلام

يذكّرنا قول صاحب خان فخري بك «أن البروتستنت، لا هم من النصارى ولا هم من المسلمين»، بعبارة لأحمد فارس الشدياق، أحد كبار الكُتّاب العرب في القرن الماضي.

فقد نشأ فارس الشدياق من عائلة مارونية معروفة في لبنان، وكان أخوه الأكبر أسعد قد اعتنق المذهب البروتستنتي فتعرض للاضطهاد في أحد الأديرة المارونية حتى مات، وقد أثّرت هذه الحادثة على أخيه فارس الذي قيل إنه اعتنق الدين الإسلامي في ما بعد تشفياً مما حدث لأخيه، وأضاف إسم أحمد على اسمه فصار: «أحمد فارس الشدياق».

وقد ذكر أحمد فارس الشدياق في مقال نشره في جريدة الجوائب، عن اعتناقه للدين الإسلامي، فقال، إنه سبق له أن اعتنق المذهب البروتستنتي، قبل عدة سنوات، وهو مذهب وسط بين مذهب الموارنة والإسلام ـ كذا.

جدّي مات على ضوء سراج زيت الزيتون

في العقد الرابع من القرن الحالي، كتب حنا خباز مقالاً موضوعه «تقدم العلم» تطرّق فيه إلى ذكر أهم الاختراعات والاكتشفات حتى ذلك الوقت، وذكر فيه أنه عندما نال شهادته من مدرسة الفنون الأميركية في صيدا، وكان ذلك في العقد التاسع من القرن الماضي، ألقى مدير المدرسة يومئذٍ المعلم

يواكيم الراسي، في الاحتفال السنوي، خطاباً موضوعه «تقدم العلم» تطرق فيه كذلك إلى ذكر أهم الاختراعات والاكتشافات حتى ذلك الوقت، وترحّم على والده الذي كان قد مات قبل أن ترى عيناه عود الثقاب وقنديل الكاز ومكنة الخياطة.

وأضاف حنا خباز قائلاً، انه بدوره، يترحم على معلمه المذكور الذي مات قبل أن تبصر عيناه السيارة والطائرة وسائر منجزات العلم الحديثة[1].

كان حنا خباز عالماً يراقب باهتمام تطور العلم ويترقب انتصاراته بفرح واعتزاز، إلاّ أنه مات، هو الآخر كذلك، قبل أن تسمع أذناه خبر صعود الإنسان إلى الفضاء الخارجي، وهو أعظم منجزات العلم الحديثة حتى يومنا هذا، ولذلك فإني أترحم عليه الآن، فأرد له جميله مع والدي المعلم يواكيم الراسي.

---

(١) جاء في ملحق النهار بتاريخ ١٢/١٠/٦٩ أن أول فونوغراف عرف في لبنان اشتراه اليان شاغوري، وأن مجلة المقتطف كتبت سنة ١٨٨٠ بعدما وصل إليها نبأ اختراع الفونوغراف على يدي أديسون: «نحن لا نعترف بوجود الفونوغراف إلا بعد أن نراه ونسمعه»، مع العلم أن مجلة المقتطف كانت في ذلك الزمان، المجلة العربية الوحيدة المهتمة بنشر مآتي العلم بصورة إيجابية مجردة.

القرود ليسوا من طائفتنا

كان الدكتور شبلي الشميّل أول مفكر عربي اعتنق نظرية دارون في النشوء والارتقاء، في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت مجلة المقتطف، مع ما عرف عنها من اهتمام وترويج للمواضيع العلمية تنشر مقالات الشميّل عن أصل الإنسان بتحفظ وعلى مسؤولية كاتبها، مع العلم أن الأديان السماوية وقفت جميعها موقفاً معادياً من نظرية دارون هذه التي تزعم أن الإنسان لم يكن إنساناً منذ الأزل إنما كان حيواناً من فصيلة القرود، وقد تطور مدى ملايين السنين حتى صار على ما هو عليه الآن.

قيل إن أحد الكتاب اللبنانيين ذهب يستمزج رأي أحد رجال الدين، عند وفاة الدكتور الشميل سنة ١٩١٧، بشأن جنازته فقال رجل الدين: «يزعم الشميّل أنه ينتمي بالسليلة إلى فصيلة القرود، وهو لا شك صادق بزعمه، مع العلم أن القرود ليسوا من طائفتنا والحمد لله».

ولعل الشاعر الياس فرحات، ابن قرية كفرشيما ـ مسقط رأس شبلي الشميّل ـ إنما أراد أن يثأر له عندما قال:

«إذا كـان الشميّـل والمعـرّي
ورهـطهـما هنـالـك في السعير
فقط فضّلت سكنى النار معهم
على سكنى السماء مـع الحمير»

قفا نبكِ...

ذكر أمين الريحاني في كتابه «انتم الشعراء» أن رجلاً انكليزيّاً سمع مُطرباً عربيّاً يغني بصوت حزين ويردد متأوهاً: «يا مين يرد لي حبيبي»، فسأل الانكليزي: «وما بال هذا الرجل؟» قيل له: «أخذوا حبيبه وهو يستنجد بمن يرده إليه». فقال: «لو أخذوا حبيبي لانتزعته منهم بالقوة، أما انتم فتجلسون للبكاء عليه».

المحجّة البيضاء إلى فهم مقاصد العلماء

في أوائـل الثلاثينـات من القرن الحـالي، وُضعت قيد الاستعمال على ألسنة العرب، كلمات واصطلاحات علمية جديدة منها كلمة «كريات» المستعملة عند تحليل الدم، فصرنا نقول أحياناً كريات بيض، وأحياناً كريات بيضاء، على حد سوى.

وخطر ببال أحد الكتاب الغيارى على لغة الأعراب، أن يكتب تصويباً في إحدى المجلات يوصي فيه أن يقال «كريات بيض» وما عدا ذلك فهو خطأ، فإذا بامين ظاهر خير الله ـ وهو من علماء ذلك الزمان ـ ينشر في مجلة المقتطف القاهرية، مقالاً يؤكد فيه، بالحجة والبرهـان، جواز القـول «كريـات بيضاء».

في تلك الأيام كان الأب انستاس الكرملي من أساطين العربية وحُماتها، فانبرى لتخطئة أمين ظاهر خير الله، ونشر في مجلة المقتطف وفي مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق، تحت عنوان «لا تقل كريات بيضاء» ردوداً مسهبة يدحض فيها

اجتهادات أمين خير الله ويؤكد الزامية القول «كريات بيض» لا غير.

ونشبت حينـذاك معارك كـلامية وقلمية، دامت عـدة سنوات، اشترك فيها، سلباً وإيجاباً، عدد من مفكّري ذلك الزمان، منهم الدكتور الفريق أمين باشا المعلوف، الذي كتب في جريدة المقطّم المصرية يعترض على مجمع اللغة الملكي في مصر لقوله «غدد صـماء» ويطلب أن يقـال «غدد صم» لا صماء..

وهذا ما زاد الطين بلّة، فهب أمين ظاهر خير الله، سنة ١٩٣٧ إلى تأليف كتاب من ١٤٤ صفحة، موضوعه «المحجة البيضاء في صحة نعت الجموع بفعلاء» ـ ومحجة تعني نصف الطريق ـ فذكر فيه عشرين حجة على صوابية القول «كريات بيضاء» و«غدد صماء»، استناداً إلى «تاج العروس» و«الجاسوس على القاموس» ومصادر أخرى متنوعة. كما وضع كتاباً آخر موضوعه «البرهان الجلي على علم الأب الكرملي» حشد فيه إلى جانبه، صفوة العلماء من جار الله الزمخشري إلى أبي خراش الهذلي.

في هذه الأثناء أنهى طبيب لبناني تخصصه في أميركا ورجع للعمل في بلادنا، إلا أنه لم يلبث أن جمع حقـائبه للسفر، فجاء مَن يطلب منه البقاء للإفادة من علمه فأجاب:

القِسم الثالِث

كما تكونون يولّى عليكم

«من الآن وإلى أن تتفقوا على نعت «كريات» و «غدد» أكون قد نسيت ما تعلمته عنهما».

أسرار القبّة الزرقاء

ألّف الدكتور كرنيليوس فان ديك وعرّب ونشر لا أقل من ثلاثين كتاباً باللغة العربية، تناول فيها مختلف المواضيع العلمية التي لم يسبق لأحد سواه أن سبر أغوارها ونقل أسرارها إلى لغة الضاد.

وكان آخر كتاب ألّفه سنة ١٨٩٣ في علم الفلك، ضمّنه أحدث النظريات في علم الفلك حتى تلك السنة، وجعل موضوع الكتاب، «إرواء الظماء من أسرار القبّة الزرقاء». فجاء من يقول له: «نقول غالباً «ظمأ» لا ظماء» وبذلك تختل القافية»، مع العلم أن الكلام المقفّى المسجوع، كان يومئذ من أهم عناصر البلاغة، فأجاب فان ديك: «إذا قلنا «ظمأ» أو قلنا «ظماء» فهل يحول ذلك دون فهم أسرار القبّة الزرقاء».

العشبُ لا يَنبت على طريق بكركي

كان الجنرال «سـرّايل» من أبـطال الحرب في فـرنسا، ولذلك عندما أرسلته الحكومة الأفرنسية مفوضاً سامياً على سوريا ولبنان سنة ١٩٢٥، جاءنا بأبّهة الملوك والفاتحين، وكان بالإضافة إلى عنفوانه العسكري، علمانياً يكره الجزويت وسائر رجال الدين ويناصبهم العداء علانية.

وحدث يوماً أن دُعي الصحافيون للاجتماع به، وكان بينهم الخوري لويس الخازن ـ الذي كان يشتغل بالصحافة في ذلك الوقت ـ وقد جاء بثوبه الكهنوتي، فسأله الجنرال سرّايل بوقاحة: «وأنت ماذا جئت تفعل هنا بثوبك الأسود ولحيتك البشعة؟».

فأجاب الخوري لويس: «أنا كاهن ماروني ولي الشرف أن أكون هكذا، وقد جئت الآن بصفتي من رجال الصحافة لأسألكم عمّا إذا كنتم ستزورون بكركي كما كان يفعل جميع الذين سبقوكم إلى تولي هذا المنصب السامي».

فقال سرايل: «اعلموا أنني لن أزور بكركي، ولا شأن لبكركي في هذه المفوضية».

وحمل سرّايل، في مناسبة أخرى، على رجال السياسة الذين كانوا يترددون على بكركي، في كل مناسبة لأخذ رأيها بما لا يعنيها، وقال: «من الآن وصاعداً سينبت العشب على طريق بكركي».

ومن حكايات ذلك الزمان أن روكز أبو ناضر، وهو إذ ذاك من مشاهير رجال السياسة، أراد يوماً أن يغمز من قناة زميله جورج زوين، فسأله في أحد الاجتماعات، وعلى مسمع من الجنرال سرّايل: «علمت أنك كنت أمس في بكركي فكيف صحّة سيدنا البطرك؟».

وكان جورج زوين ـ الملقب بالأسد ـ شجاعاً حاضر الذهن، فأجاب: «صحة سيدنا تحسنت كثيراً منذ ما انقطعت أنت عن زيارته».

في تلك الأيام قامت بوجه سرّايل حملة سياسية وصحافية، قادها إميل إدّه، الذي أعلن الحرب علانية على حكم سرايل. ثم لم يلبث أن ذهب إلى باريس، حيث استطاع أن يقنع حكومتها بأن حكم فرنسا في لبنان وهيبتها لا يقومان إلا على صداقة بكركي، فأصدرت وزارة الخارجية الأفرنسية أوامرها إلى الجنرال سرّايل بوجوب مصالحة بكركي ومسالمة الجزويت وسائر رجال الدين.

وقد قيل ان سرّايل أعرب، يومئذ، لجورج ثابت عن رغبته بزيارة بكركي، فقال: «ليتكم تؤجلون زيارتكم بعض الوقت ريثما يتم إصلاح الحفر في طريق بكركي».

فلم يفطن سرّايل لمقصد جورج ثابت وسأله: «وما هو سبب هذه الحفر؟» فأجاب: «كثرة الذاهبين والعائدين يا فخامة الجنرال».

أما نكتة الموسم، في ذلك الوقت، فقد جاءت على لسان الشيخ يوسف الخازن الذي كان نائباً وصحافياً وقد اشتهر بسرعة الخاطر وخفة الدم.

فقد اصطحبه إميل إدة معه، عندما ذهب إلى باريس لمراجعة حكومتها بخصوص تصرفات الجنرال سرايل، وفي أحد الأيام افتقده فأخذ يبحث عنه حتى وجده أخيراً يتحدث منسجماً مع أحد ماسحي الأحذية، بعد مسح حذائه، فصاح به: «وهل نسيت أننا الآن على موعد في وزارة الخارجية حتى جلست هنا تضيع وقتك بالحديث مع هذا البويجي؟».

فأجاب الشيخ الخازني: «ولكن قد ترسله غداً وزارة الخارجية ليكون حاكماً في بلادنا فلنتخذه، منذ الآن، صديقاً لنا».

كل مفعول جايز

كان الحاكم الإفرنسي «ليون كيلا» ـ الذي حكم لبنان في

عهد مفوضية الجنرال سرايل ـ قد اعتنق سياسة «كل مفعول جايز»، ويقال إنه تعلم هذا المثل من أحد معاونيه اللبنانيين فحكم لبنان حسب هواه وإرادته، ضارباً عرض الحائط بكل معارضة أو اعتراض.

لذلك أخذت بعض الجرائد الوطنية تنتقد بعض تصرفاته، فيما تفرّدت جريدة «لا سيري» التي كان يصدرها رجل أفرنسي اسمه «فيسيه» بالدفاع عن سياسة الحاكم «كيلا».

وتناقلت الألسن في أحد الأيام، أن كيلا قال في أحد مجالسه، رداً على الحملة القائمة ضده: «الكلاب تنبح والقافلة تسير»، ونشرت جريدة «لا سيري» هذا الخبر وعنونته بالعبارة نفسها.

فما كان من إحدى الجرائد الوطنية إلا أن نشرت في اليوم التالي رداً على المقال المذكور، هاجمت فيه جريدة «لا سيري» وصاحبها، إلا أنها جعلت موضوع الردّ «اربطوا الكلب «كيلا» ينبح» ويقال إن الجريدة التي نشرت هذا الرد هي جريدة الأرز لصاحبها الشيخ يوسف الخازن، كما يزعم آخرون أنها مجلة الدبور.

وكان «كيلا» هذا يضايق رجال الدين ويحد من تدخلاتهم في شؤون الدولة، كما كان يتهكم عليهم في بعض المناسبات، ولم يكن ذلك إلا تمشياً مع سياسة رئيسه المفوض السامي،

الجنرال سرايل، الذي كان يحارب رجال الدين علناً وبدون هوادة.

وقد تداول الناس، في ذلك الوقت، نكتة لا بأس من ذكرها هنا، وهي أن الحاكم «كيلا» التقى يوماً بالمطران أغناطيوس مبارك على طريق الحازمية، وكان المطران قادماً إلى بيروت، و«كيلا» ذاهباً باتجاه الحازمية.

وأراد «كيلا» أن يتهكم على المطران مبارك فقال له: «أخال أنك خارج الآن من العصفورية؟» فأجاب المطران: «إن من يخرج من العصفورية أفضل ممن يذهب إليها».

لوجه الله

أرسل الملك لويس الافرنسي سنة ١٢٥٠ رسالة إلى موارنة لبنان جاء فيها: «إلى أمير الموارنة في جبل لبنان وإلى بطريرك وأساقفة الطائفة المذكورة، إن محبتنا الخالصة التي ابتدأنا أن نستشعرها نحو أمة الموارنة... قد تضاعفت... ونحن موقنون أن هذه الأمة التي قامت تحت اسم القديس مارون هي قسم من الأمة الافرنسية».

تاريخ الطائفية المارونية للدويهي

احكموا على المسلمين وَبرِّئوا المسيحيين

سنة ١٩٣٨ كانت الثورة العربية قد أشتعلت في معظم أنحاء فلسطين، وكانت الغاية منها تثبيط عزائم اليهود لإقناعهم باستحالة العيش في الأرض المقدّسة، وبعدم إمكانية تحقيق الوطن القومي الموعود. كما كانت غايتها كذلك إرهاب العرب المتعاونين مع اليهود وتوقيف عمليات بيع الأراضي العربية إلى الصهيونيين.

لذلك قامت في عدة أماكن من فلسطين، عصابات مسلّحة من الشبان العرب، لتنفيذ هذا المخطط، كانت أحداها ما سُمّي بعصابة عساف الصباغ في منطقة الحولة.

كان عساف شاباً وطنياً متحمساً نفخ روح الجهاد في نفر من شبّان إبل السقي وسواهم، فألّفوا عصابة تولّت تنفيذ أوامر القيادة العربية في منطقة الحولة، حيث ألقوا الرّعب في نفوس سكان المستعمرات اليهودية وشلوا أعمال المتعاونين معهم.

وفي أحد الأيام وُجد يهودي مقتولاً في الأرض الفلسطينية

قرب الحدود اللبنانية، فقام اليهود بنقله إلى داخل الأراضي اللبنانية، وأقاموا الدعوى في لبنان على عساف ورفاقه، لأن إقامة الدعوى في فلسطين لم تكن تجدي نفعاً.

هذا بالإضافة إلى العطف المحسوس على اليهود، من قبل القومندان الأفرنسي «جيريه»، قائد موقع مرجعيون العسكري، الذي بادر حالاً إلى اعتقال عساف ورفاقه، واستعمل معهم أعنف أساليب الوحشية، فاعترف بعضهم بارتكاب الجريمة، وأُحيلوا جميعاً إلى محكمة الجنايات.

في ذلك الوقت كانت بعض الشخصيّات الوطنية في لبنان تؤيد حركات العنف في فلسطين وتمدّها بالعون المعنوي، ومن هذه الشخصيات رياض الصلح الذي كان أبعدها نظراً وأصلبها رأياً. جئناه يوماً، أنا والخوري اثناسيوس مطلق، نذكّره باقتراب موعد محاكمة عساف الصباغ ورفاقه، فقام واصطحبنا معه إلى بيت نسيبه سامي الصلح، رئيس محكمة الجنايات في ذلك الوقت، وقال له بالحرف الواحد: «بالنسبة إلى الاعتبارات الوطنية، عندي في الجنوب شابّان لا أُفرِّط بهما أبداً: علي بزي من الشيعة وعساف الصباغ من المسيحيين، وعساف هذا قد راجعتك بأمره وأمر رفاقه مراراً، والآن أريد أن أعلم ما هي احتمالات الحكم بالنسبة إلى حساسية الموضوع».

فأجاب سامي الصلح بأنه يشعر بالعطف على عساف

ورفاقه ولكنه لا يقدر أن يساعدهم لأن بعضهم كان قد اعترف بارتكاب الجريمة.

فقال رياض عندئذ: «يوجد أحد عشر متهماً بالجريمة، منهم ثمانية من المسيحيين ودرزي واحد واثنان من المسلمين السنيين، فإذا كان لا بد من الإدانة فإني أطلب أن تحصروا الجرم بالاثنين المسلمين، وبالدرزي إذا أوجب الأمر، وأن تبرئوا المسيحيين جميعهم، لأني لا أقبل أن يحكم مسيحي واحد بجرم وطني وأن يكون ابن الصلح هو القاضي، فتكون النتيجة تنفير المسيحيين اللبنانيين من الحركات الوطنية.

فأثر كلام رياض في سامي الذي قال إنه مستعد أن يحكم ببراءتهم جميعاً المسيحيين منهم والمسلمين، إذا هم عادوا عن اعترافهم، وقالوا في المحكمة إنهم اعترفوا بارتكاب الجريمة نتيجة لتعذيبهم عند إجراء التحقيق.

وتوجهت بعد ذلك لمقابلة وكيل عساف ورفاقه، فأخبرته بما حدث، وتمكّنت بواسطته وبمساعدة أحد كبار ضباط الدرك من مقابلة عساف في سجنه، تلك الليلة، حيث أطلعته على تطورات الموقف.

وهكذا برَّ سامي الصلح بوعده فبرأت محكمة الجنايات جميع المتهمين الذين عادوا عن اعترافاتهم السابقة، ما عدا واحداً منهم لم يرجع عن اعترافه فحُكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً.

الحَاج «غليُوم» خيِّب أمَل النصارى

بعثت زيارة الأمبراطور غليوم إلى بلادنا قبيل نهاية القرن الماضي، بصيصاً من الأمل في قلوب المسيحيين، لأنه لم يكن قد أُتيح لهم، حتى ذلك الوقت، أن يستقبلوا عظيماً من عظمائهم، بحرية واعتزاز، بعد فردريك بربروسا وريكاردوس قلب الأسد وسائر ملوك الصليبيين في القرن الثاني عشر.

ومع أن معظم مسيحيي بلادنا كانوا يرتبطون روحياً، إمّا بفرنسا وإمّا بروسيا القيصرية، فقد توسموا الخير في إطلالة الأمبراطور الألماني البروتستنتي عليهم، عندما علموا أنه جاء حاجّاً إلى مهد المسيح وحده، لما في ذلك من معانٍ كثيرة ومغازٍ مثيرة عند المتدينين منهم، فأطلقوا عليه لقب «الحاج غليوم» أو «الحج غليون»، تحبباً أو تجبراً على حدٍ سوى.

وقد تناهى إلينا جزء من موّال بغدادي منسوب إلى فرج الله بيضا، أحد شعراء المواويل من أبناء ذلك الجيل، قال:

«ماتو صحاب النخا، والجود مالو بالوجود وجُود
يا حج غليوم يا سلطان عرش «المان» مِنّ وجُود
وضوّي بقبر المسيح شمعة أمل للمؤمنين.. وجُود

فهل حقق الحج غليوم أمل المسيحيين فيه؟

يقال إنه عندما وصل إلى القدس، قدم إليه وفد من مطارنة مختلف الطوائف ورفعوا ظلامتهم إليه، قالوا إن المسيحيين في السلطنة العثمانية مواطنون من الدرجة الثانية، وإنهم أحياناً يتعرضون للإهانة بسبب معتقداتهم، وطلبوا من «الحاج غليوم» أن يتوسط، بما له من دالة على سلطان بني عثمان، من أجل تحسين أوضاعهم.

وقد عُرف يومئذٍ أن الأمبراطور غليوم أجاب بصراحة فقال: «أمامكم ثلاثة حلول: إمّا أن ترحلوا من هذه البلاد، وإمّا أن تقبلوا بالأمر الواقع، وإمّا أن تصيروا مسلمين».

فمتى جاء غليوم إلى بلادنا وماذا كانت أسباب زيارته؟

في أواخر القرن الماضي ترقّب المراقبون السياسيون انهيار السلطنة العثمانية، فجلس ملوك أوروبا، آنذاك، حول «الرجل المريض» - كما وُصفت السلطنة العثمانية يومئذٍ - ينتظرون موته لاقتسام تركته.

ولذلك أخذت كلٌ من انكلترا وفرنسا وروسيا تعمل على تسريب نفوذها بواسطة الجمعيات السرية والتنظيمات

العسكرية والأقليات الدينية والعنصرية داخل السلطنة، فلم يبقَ أمام المانيا إلا التوكؤ على السلطان عبد الحميد بالذات، فعمدت إلى تدعيم عرشه وتثبيت صولجان الملك في يده.

ولذلك توجّه الأمبراطور غليوم الثاني - عاهل المانيا - بنفسه مع أولاده السبعة وزوجته ورجال حاشيته، إلى الاستانة لزيارة سلطان العثمانيين وخليفة المسلمين.

ثم سافر بحراً إلى حيفا وتوجّه منها إلى القدس، وكان ذلك في شهر تشرين الأول سنة ١٨٩٨، فدخلها دخول الفاتحين: كان يركب على حصان أبيض ويعتمر خوذة من الفضة ويرتدي بزة من الحرير الأبيض ويسدل على ردفَي حصانه صليباً من الحرير الأحمر - تماماً كما كان يفعل ملوك الصليبيين عندما كانوا يدخلون إلى بيت المقدس - وكانت غاية زيارته ظاهرياً تدشين إحدى الكنائس، وبالفعل تدشين عهد الصداقة بين أمبراطور النصارى وخليفة المسلمين.

وجاء غليوم بعد ذلك إلى بيروت فقال عنها: «بيروت درّة تاج بني عثمان» وجرت عبارته مثلاً في ذلك الزمان، ثم زار بعلبك ثم دمشق حيث ألقى خطاباً سياسياً مهماً جاء فيه «ليثِقْ جلالة السلطان عبد الحميد خان والثلاثماية مليون من المسلمين الملتفين حول خلافته، أن امبراطور المانيا هو صديقهم إلى الأبد».

لذلك خَيَّب «الحاج غليوم» أمل المسيحيين فأحبَّه غلاة المسلمين من أنصار بيعة عبد الحميد ودعوا اسمه «بو علي غليوم»، مثلما فعلوا في ما بعد مع زميله هتلر كما هو معروف.



الأمبراطور غليوم
خيّب أمل النصارى

وأبو علي هتلر يخيّب أمل العرب

وخلافاً لكل ما تقدم ذكره، يروي أحد الرواة وهو، كبير معمري رأس بيروت وأغنى مصدر للقصص الشعبية فيه، يقول إن زيارة غليوم إلى بلادنا كان لها سبب جوهري ـ كأن ما ذكرناه آنفاً ليس جوهرياً، سامحه الله ـ.

ـ «غليوم»، «لا خفاك الأمر»، كان يعلم تمام العلم أن شبّان بلادنا هم أنبل وأجمل «وأفحل» شبّان الأرض، فنظّم حيلة بارعة انطلت على الوالي إذ طلب منه أن يجهّز له حرساً خاصاً من نخبة شبان بلادنا، لمرافقته في تنقلاته وكان له ما أراد. وعندما سافر غليوم اختفى أثر أولئك الشبان، وتبين في ما بعد أنه نقلهم سراً إلى بلاده لاستعمالهم في عملية تحسين نسل الشعب الألماني»، كذا.

والواقع أن عمليات تهجين شعوب أوروبا، عن طريق نسائها، وتلقيحها بدماء عربية شريفة، هي من هواجسنا القديمة، إذ يروى أن الصليبيين، عندما استولوا على بلادنا، كانوا يقبضون على أجمل فتياننا وينقلونهم إلى بلادهم، حيث يقدّمونهم هدايا إلى زوجاتهم، لغاية تحسين أنسالهم ـ تماماً كما كانوا يفعلون بجيادنا العربية الأصيلة التي كانوا ينقلونها إلى أوروبا لتهجين خيولهم.

والحقيقة المؤلمة هي أن الصليبيين، إنما كانوا يقبضون على

فتياننا، أولئك، وينقلونهم إلى حيث كانوا يبيعونهم عبيداً في أسواق النخاسة.

وعندما وقعت الحرب الكونية الثانية، اتجهت أنظار بعض المفكرين العرب إلى المانيا، وتوقعوا أن يتم، بواسطتها، خلاصهم من براثن الاستعمار، وتخيّلت الجماهير العربية وجود روابط حسب ونسب بيننا وبين الألمان، فأطلقنا على هتلر اسم «أبو علي» وبدأنا معه شهر عسل لذيذاً.

وأُشيع يومئذ أن هتلر يؤيد استقلال الشعوب العربية، ووحدتها ويعمل على إعادة الخلافة إلى العرب، وما أشبه ذلك، حتى وجد من يزعم بأن «أدولف هتلر» هو حفيد «أبو علي العتر» من بيروت، الذي كان قد التحق بجيش نابليون عندما غزا بلادنا، ثم انتقل إلى المانيا واستوطنها بعد سقوط عرش نابليون في فرنسا.

ولعل أطرف ما سمعناه في تلك الأيام من قصص هتلر هو أنه زار باريس بعد وقوعها في قبضته سنة ١٩٤٠، وتوجه أولاً إلى قبر نابليون فانحنى بكل احترام وقال: «سامحني يا نابليون العظيم لأني دحرت أُمّتك وألبستها عار الهزيمة، ولكن «لا خفاك الأمر» أن أُمّتك كانت متلهية بأخذ قياسات أفخاذ النساء، عندما كانت أمتي مشغولة بأخذ قياسات فوهات المدافع».

وهذه القصة ينفيها الألمان وينكرها الأفرنسيون، فهي إذنْ

من تخيلاتنا الجميلة، لأن هتلر كان قد أصبح من أبطالنا، فنسجنا حوله الأساطير، وصار من حقنا أن نسجّلها هنا لئلا تضيع.

ولكن شهر عسلنا مع هتلر لم يدم طويلاً، إذ تبين أن فلسفته النازية تصنّف الشعوب إلى سلالات متفاوتة من حيث أصالتها أو انحطاطها، وقد صنفت العرب من السلالات البشرية المنحطة.

وهكذا خيّب أبو علي هتلر أمل العرب فيه.

العظمة

الحكمة هي أن تعرف كيف تختار أصدقاءك إنما العظمة هي أن تعرف كيف تختار أعداءك.

رياض الصلح

ردّوا إليهم نابليونهم

زار إحدى القرى[1] المجاورة لبيروت - على ما يقال - كاهن ضليع، وذلك في إحدى المناسبات الدينية، وبعد القدّاس ألقى عظة عن صلب السيد المسيح وعن الاضطهاد الذي أصاب القدّيسين والذي يصيب، غالباً، الأحرار والعظماء، وخلص أخيراً إلى الكلام عن البطل الأفرنسي العظيم نابليون الذي أسره الأنكليز وأنالوه شتّى أنواع العذاب.

فأثّر كلامه عن نابليون في قلوب أهالي القرية، وأخذوا في مجالسهم يسترجعون أقوال الكاهن عن هذا البطل الأفرنسي العظيم، وقرروا أخيراً أن يحتجوا على اعتقاله ويطالبوا بالإفراج عنه، ولم يعلموا أنه كان قد مرّ على موته أكثر من نصف قرن من الزمان.

---

(١) جاء في ملحق النهار الصادر بتاريخ ٢١ - ٩ - ٦٩ أن هذه الحادثة وقعت في بلدة الدامور.

وبلغ بهم الحماس إلى التجمع والسير بمظاهرة إلى بيروت للاحتجاج أمام القنصل الانكليزي فيها وكانوا يحدون:

يــا بـتـْــردّوا الـنــابــلـيــون

يمّـــا بـتـثــور الــضــيـعــه

فاستقبلهم القنصل الأنكليزي بكل بشاشة واستمع إلى مطلبهم بجدّية واهتمام، وطيّب خاطرهم ووعدهم بأن ينقل رغبتهم إلى حكومته التي، ولا شك، ستلبّي طلبهم وترد النابليون إلى بلاده سالماً.

وتناقل الناس خبر هذه الحادثة الطريفة فدخلت في تاريخ لبنان الشعبي، وحدث بعد ذلك بوقت طويل أن اعتقلت الحكومة التركية الشاعر التركي الكبير ناظم حكمت بتهمة الشيوعية، وبعد أن مرّ على اعتقاله سنوات عديدة فنسيه الناس، تنادى بعض رجال الفكر في أوروبا إلى المطالبة بالإفراج عنه، وتجاوب معهم عدد من أدباء لبنان فوقّعوا عريضة بطلب الإفراج عنه وقدّموها إلى المسؤولين في لبنان، طالبين توسطهم في هذه القضية، وأذكر أنني كنت في عداد موقعي تلك العريضة.

وفي اليوم التالي نشرت الخبر إحدى الجرائد المحلية - النهار - على ما أعتقد - ووضعته بشكل جدّي لا شائبة عليه، إلا أنها جعلت العنوان: «ردّوا إليهم نابليونهم».

ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تُزوِّدِ

قلّما ذُكر اسم أحمد جمال باشا الا ذُكر معه اسم الشيخ أسعد الشقيري، مفتي الجيش الرابع وأقرب الناس إلى قائده أحمد جمال باشا.

ويروى أن بعض المقربين إلى جمال باشا، كانوا يوماً يتحادثون في مجلسه بأمرٍ ما، وكان الشيخ أسعد يدافع عن وجهة نظر معينة، وما لبث أن استشهد بالبيت القائل:

«ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تُزوِّدِ»

فطلب جمال باشا معرفة معنى البيت الذي تولى أحد الحاضرين ترجمته فقال إنه لشاعر عربي قديم يقول فيه إنك إذا كنت تجهل أمراً ما فإن الأيام تكشفه لك، ويأتيك من يخبرك عن كل أمر دون أن تكون قد كلفته أو استأجرته لهذه الغاية.

فوقع البيت موقعاً حسناً في نفس جمال باشا وطلب أن يلقنوه إياه حتى حفظه غيباً وصار يردده في كل مناسبة.

وبعد أن حفظه جيداً طلب من والي بيروت بكر سامي بك أن يلغي معظم المخصصات السرية التي كان ينفقها على العملاء والمخبرين قائلاً له: «سيأتيك بالأخبار من لم تزوّدِ».

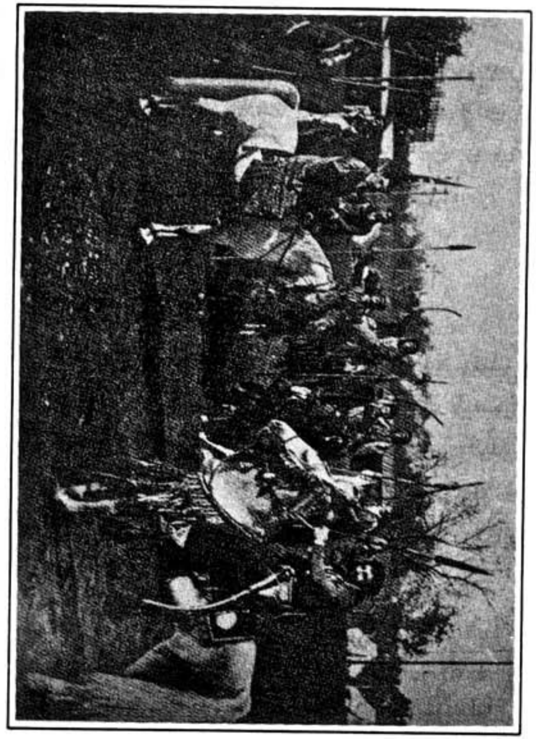
ولم يخبْ ظن القائد التركي بالشاعر العربي، لأن بعض زعماء البلاد أخذوا يتبرعون للدولة بأخبار أعدائها، وأحياناً بأخبار أعدائهم على حد سوى، وبهذه الطريقة تمت تصفية عدد من الشهداء كما هو معروف.

هُناك فتنة وهُنا فطنَة

وأراد جمال باشا، بعد إعلان الأحكام العرفية وتعليق المشانق في بيروت ودمشق، أن يقوم ببعض الزيارات الرسمية لزعماء البلاد، إذ يفترض أن تقام على شرفه المهرجانات الشعبية المصطنعة لتغطية نقمة الناس عليه، ويهرع رجالات الأمة لإعلان ولائهم للباب العالي وللسلطنة العثمانية، وكان الشيخ أسعد الشقيري رفيقه الدائم في هذه الزيارات.

وصل موكب جمال باشا في أحد الأيام إلى دار الطيبة، مقر كامل بك الأسعد، حيث احتشد أبناء الجنوب لاستقبال القادم الكبير، ولإعلان ولائهم، في نفس الوقت، لدار الطيبة، كما هو شأنهم في جميع المناسبات.

في ذلك الوقت، كانت تساور جمال باشا بعض الشكوك



بسيوفنا ورماحنا يا «بيك» منكيد العدا

بإخلاص الشيعة لسياسته، ولا سيما بعد إعدام عبد الكريم الخليل، أحد أبرز زعمائهم في ذلك الزمان. ولذلك، ما أن استقر المقام بجمال باشا وصحبه حتى وقف الشقيري وقال إنه سيتكلَّم باسم الطائفة السنية تاركاً لزعماء الشيعة أن يتكلموا باسم طائفتهم.

فما كان من الحاج إبراهيم العبد الله، أحد زعماء الشيعة، إلا أن تقدم وصاح بأعلى صوته: «نحن لا نقبل أبداً بهذا التفريق بين المسلمين، فالسنّة والشيعة ليس لهم سوى إله واحد ورسول واحد، ولا يدينون بالولاء إلّا لسيِّد واحد هو مولانا أمير المؤمنين سلطان بني عثمان أيّد الله حكمه، فإذا أراد الشيخ الشقيري أن يتكلم فليتكلم باسم جميع المسلمين، وإلاّ فنحن عندنا من يقدر أن يتكلم باسمهم».

فأُعجب جمال باشا ببداهة الرجل وسرعة خاطره، ودعاه إلى الجلوس بجانبه وأولاه كل اهتمام.

ومن «الطيبة» انتقل موكب جمال باشا إلى قرية «واسط» في الجولان وهي مقر الأمير محمود الفاعور، حيث استقبله الأمير مع عدد كبير من رجال قبيلته المعروفة باسم عرب الفضل، ورحب به بصورة شخصية، ولكن فاته أن يعلن بالمناسبة ولاءه للباب العالي وتأييده لسياسة أحمد جمال باشا.

وظهر الامتعاض على وجه جمال باشا، وشعر المدعوون من وجهاء البلاد بحراجة الموقف، فإذا بالشيخ الشقيري

يقول: «لو لم يكن من عادات أمراء العرب أن لا يسبق كلامُهم قهوتَهم لما تأخر الأمير حتى الآن عن إعلان ولائه، الذي لا شك فيه، لسياسة القائد العظيم».

فانتبه الأمير محمود وأمر بإحضار القهوة ثم وقف وقال إنه يضع نفسه ورجاله تحت تصرف جمال باشا للجهاد تحت رايته المظفرة، فانفرجت عندئذٍ أسارير جمال باشا وأعجبته بداهة صديقه الشقيري الذي تجلى آنذاك بحكمته وأنقذ الموقف بفطنته.

ومما يذكر أن سليم فرنسيس، الذي كان من أذكياء الرجال، حضرته البلاغة عندئذٍ، فقال: «الشقيري سامحه الله، في الطيِّبة فتنة وهنا فطنة!»، ويقال إن سليم فرنسيس تعرض للملاحقة والاضطهاد بسبب هذه العبارة.

خونة وأرواحهم في الجنة!

المعروف أن جمال باشا كان قد استصدر فتوى خاصة بإعدام شهداء ٦ أيار من محدث الشام الأكبر، الشيخ بدر الدين الحسني، استناداً إلى الآية الكريمة: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض﴾.

وحدث عند تنفيذ حكم الإعدام بأحد الشهداء، في ساحة البرج أن تجمع هناك عدد كبير من الناس لدواعٍ مختلفة، وكان بينهم أحد رجال الدين، فسأله أحد الحاضرين: «أين تذهب الآن روح هذا الرجل».

فقال رجل الدين: «هذا الرجل جُوزي بالشنق على خطيئة الخيانة، فإذا لم تكن عليه خطايا أخرى مميتة، فهو الآن في طريقه إلى الجنة».

قيل إن هذه الكلمات تسربت إلى مسامع جمال باشا، فانتابته نوبة من الغضب الشديد وقال: «هذا محال، أيجوز أن نرسل خائناً إلى المشنقة وتذهب روحه إلى الجنة»، وطلب أن يؤتى إليه بصيغة قانونية تتضمن فتوى دينية يمكن بواسطتها إعدام الخونة وقذف أرواحهم إلى الجحيم في نفس الوقت. ويقال إن الأمير شكيب ارسلان نصحه بعدم إقحام الدين في مثل هذه الأمور.

أدهم خَنجَر الدرويش

في بداية عهد الانتداب الإفرنسي، نشبت في بعض أنحاء سوريا ولبنان، عدة حوادث مسلحة كانت إحداها ما سُمّي باسم حركة «أدهم خنجر» في جبل عامل. ولكن مما يؤسف له فعلاً أن يختفي ذكر أدهم خنجر وأن تدرج سيرته مع سِيَر المجرمين، لأن حركته ابتدأت بشعارات وطنية وانتهت بمأساة طائفية.

فالإفرنسيون، وقد عجزوا عن أن يستميلوا إليهم جماهير المسلمين ضد حكم الشريف فيصل في دمشق، فقد عمدوا إلى نصب أحابيل الطائفيَّة أمام بعض غلاة الوطنيين، فانزلق أدهم خنجر في مزالقها، وكانت مذبحة عين إبل بداية نهاية حركته الوطنية، ولذلك أصبح من الصعب الآن تقييم تلك الحركة بدقة وتجرد.

ينتمي أدهم بك خنجر إلى عائلة الدرويش الإقطاعية المعروفة في تاريخ الجنوب، وكان جده أحمد بك الدرويش من أصحاب المروءة، فحمى عدداً من المسيحيين، خلال مذابح

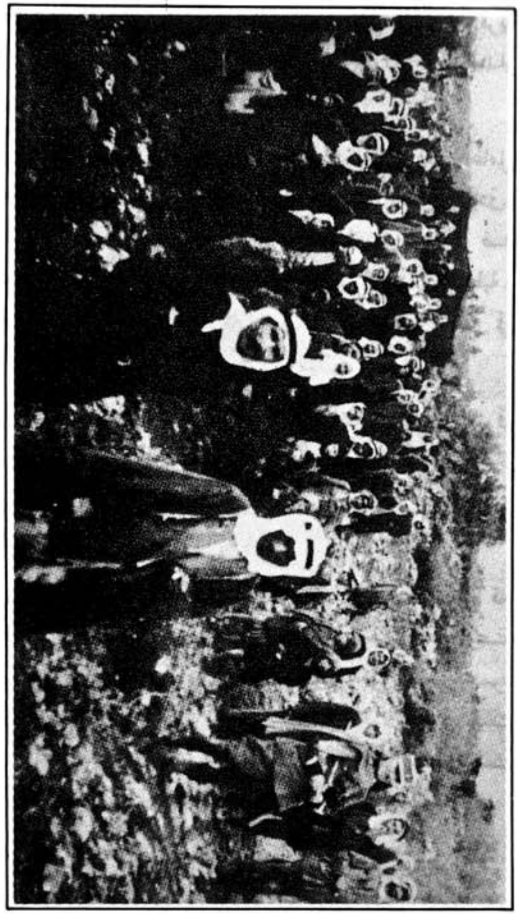
سنة ١٨٦٠، في داره التي لاتزال قائمة حتى الآن في قرية «زفتا»، وكان مسيحيو القرى المجاورة يجلون هذه الدار ويحفظون جميل سيدها طوال عشرات السنين.

تزعم أدهم بك الحركة الوطنية المسلحة في جبل عامل سنة ١٩٢٠ والتي عرفت حيناً باسم حركة «أدهم وصادق» بالنسبة إلى صادق حمزة الذي قاد وإياه عدة معارك ضد القوات الإفرنسية، منها معركة المصيلح بين صيدا والنبطية، ومعركة جسر الخردلي، ومعركة جبل رياق قرب المطله في منطقة مرجعيون.

وعندما سيطر الإفرنسيون على البلاد نزح أدهم إلى شرق الأردن، حيث تجمع في كنف الأمير عبد الله، عدد من أنصار شقيقه الملك فيصل، بعدما خلعه الجنرال غورو عن عرش سوريا.

في هذا الوقت كان عدد آخر من أنصار الملك فيصل قد قبل بالأمر الواقع، بعد سيطرة الإفرنسيين، وأعلن عن رغبته بموالاتهم والتعاون معهم وكان في عداد هذه الفئة الأمير محمود الفاعور، أمير عرب الفضل وسيّد منطقة الجولان، في ذلك الزمان، الذي كان لأشْهُر قليلة خلت من أشد أنصار الملك فيصل والثائرين تحت رايته.

أما الجنرال غورو، فقد أراد، وهو في مركز القوة، وبعدما دانت إليه مقاليد السلطة، أن يبدأ عهداً جديداً من



التعاون مع زعماء البلاد تدليلاً على حسن نوايا الانتداب الإفرنسي، فتوجه في أحد الأيام بموكب رسمي، لزيارة الأمير محمود الفاعور في القنيطرة، وكان ذلك في ٢٣ حزيران سنة ١٩٢١.

وقبل أن يصل الموكب إلى مشارف القنيطرة فاجأته شلّة من الفرسان الملثمين وأمطرته وابلاً من الرصاص، فأصيب الجنرال غورو بكم ذراعه المبتورة ـ والتي كان قد خسرها في إحدى معارك الحرب الكونية الأولى ـ فنجا بأعجوبة، في حين قتل أمين سره القومندان «برانيه»، وأصيب مرافقه حقي بك العظم رئيس دولة سوريا في ذلك الوقت برصاصة في فخذه وأخرى في ذراعه وثالثة في شفته.

وكان بالنتيجة أن جرد الإفرنسيون، بالحال، حملة كبيرة على تلك المنطقة، فنكّلوا بأهالي بلدتي مجدل شمس وجبّاتا، ودمروا بيوتهم وفرضوا عليهم غرامات مالية باهظة جداً، وتبين بعد ذلك أن أدهم خنجر هو الذي كان يقود تلك الشلّة من الفرسان المكلفين بقتل الجنرال غورو.

وفي كتاب «لبنان وسوريا قبل الانتداب وبعده» يذكر مؤلفه بولس مسعد، ان العصابة ـ على حد قوله ـ جاءت من شرق الأردن، ولذلك اتهمت حكومة الأمير عبد الله بالتواطؤ معها، خصوصاً أن الأمير هو شقيق الملك فيصل، الذي كان الجنرال غورو قد خلعه عن عرش سوريا منذ مدة قصيرة،

ولعل الأمير عبد الله أراد أن يثأر لأخيه من الجنرال غورو على يد أدهم خنجر الدرويش.

والمعروف أن أدهم، بعد هذه الحادثة، توجه إلى قرية «القريّة» في جبل الدروز، لينزل في حمى سلطان باشا الأطرش، إلا أنه قبل دخوله إلى حمى صاحب الدار، وقع في أيدي الإفرنسيين الذين نقلوه حالاً بالطائرة إلى بيروت حيث جرت محاكمته وإعدامه.

ومما يذكر أن اعتقال أدهم خنجر قرب بيت سلطان باشا الأطرش كان من أسباب الثورة السورية سنة ١٩٢٥، لأن سلطان باشا اعتبر أدهم دخيلاً عليه، وأن تقاليد الشرف توجب عليه أن يحاول إنقاذه وأن يثأر له ويثور من أجله. وهكذا كان لأن سلطان باشا أعلن العصيان المسلح في وجه الإفرنسيين ودعا إلى الجهاد ضدهم، وكانت هذه الحادثة الشرارة الأولى لإشعال نار الثورة السورية التي تولى سلطان باشا قيادتها كما هو معروف.

وقد علمنا من شكيب وهّاب ـ أحد أقطاب الثورات والحركات المسلحة في لبنان وسوريا ـ إن صادق حمزة، رفيق أدهم خنجر، قُتِل في ما بعد، بواسطة اثنين من رفاقه هما أبو ذياب الكردي وشريف البعلبكي، في حوران، ولأسباب لا علاقة لها بموضوع دراستنا هذه.

«هٰذه رزالَة الطليَان»

في شهر آذار سنة ١٩٦٧ زار لبنان السيد أمنتوري فانفاني، وزير خارجية إيطاليا، حيث لقي كل احترام وحفاوة.

وفي إحدى الحفلات التي أقيمت على شرفه، وبعد أن حميت سوق المجاملات واترعت كؤوس الأنخاب على شرف الشعب الإيطالي الصديق، تساءل الوزير الإيطالي فقال: إن الإيطاليين لم يسيئوا يوماً إلى اللبنانيين، ومع ذلك فقد اصطلح اللبنانيون على أن ينسبوا إلى الطليان كل «رزالة» يتحاشون نسبتها إلى صاحبها الحقيقي، وذلك بقولهم الشائع «هذه رزالة الطليان»، وطلب معرفة أساس هذا القول المأثور.

ومع أنه، ولا شك، كان يعرف القصة، إلا أنه توخى إثارتها، إمعاناً في ترويجها وإشاعتها، فطفق الحاضرون يروونها ويعلقون عليها.

ذلك إن رئيس الجمهورية الأسبق الشيخ بشارة الخوري،

كان قد وصل إلى كرسي الرئاسة، منتصراً على خصمه إميل إده، بمساعدة الإنكليز، كما هو معروف.

إلا أنه حدث سنة ١٩٥٢ أن قويت شوكة المعارضة ضد حكم الشيخ بشارة، بصورة جعلت الناس يفهمون أن الإنكليز كانوا، هذه المرة، وراء حملة المعارضة، ضد الشيخ بشارة، وصحّ عندئذٍ ما قيل عن الإنكليز: «لا صداقات دائمة ولا عداوات دائمة بل مصالح دائمة».

وفي ١٩ أيلول من تلك السنة، وبعد اشتداد الضغط من قبل المعارضة، وخوفاً من انفجار الموقف، قدم الشيخ بشارة استقالته من رئاسة الجمهورية.

قيل يومئذٍ إن أحد كبار أركان السفارة الإنكليزية زار الشيخ بشارة، في ذلك النهار، غاسلاً يديه ويدي دولته من كل ما حدث، متسائلاً عمن يمكن أن يكون وراء تلك الأحداث، فأجاب الشيخ بشارة بكل هدوء: «هذي رزالة الطليان» وصارت عبارته هذه قولاً مأثوراً.

بارود «يوق»

في مطلع سنة ١٩١٢ وقع خلاف بين إيطاليا والدولة العثمانية، بسبب التنازع على النفوذ في طرابلس الغرب، وتطور الخلاف إلى حرب بين الدولتين، وكان الطرّاد «عون

الله» والنسّافة «أنقره» في ميناء بيروت، عندما وصلت بعض قطع من الأسطول الإيطالي للاستيلاء عليهما، وكان ذلك صبيحة نهار ٢٤ شباط من تلك السنة.

وعندما رفض الوالي التركي حازم بك أفندي تسليم السفينتين الحربيتين التركيتين إلى الأسطول الإيطالي، أخذت القنابل الإيطالية تتساقط على ميناء بيروت، وعلى الأبنية المجاورة. فكانت حصيلة ذلك الاعتداء، غرق الطراد العثماني «عون الله» وسقوط زهاء مائتي قتيل وجريح وهدم عدد من مباني المدينة.

ومما يروى، للذكرى فقط، إن قبضايات بيروت هزّتهم الحمية فشهروا أسلحتهم وهجموا باتجاه الميناء وأخذوا يوجّهون التهديدات والشتائم للطليان، ولكن «من بعيد لبعيد».

وشاء بعض الناس أن يفسروا الاعتداء الإيطالي على بيروت اعتداءً مسيحياً على سلطنة بني عثمان، مركز الخلافة الإسلامية، فهاجموا بعض القنصليات الأجنبية، وقد ذكر أن مفتي بيروت في ذلك الزمان، الشيخ مصطفى نجا تدارك الأمر، ووقف موقفاً مشرفاً في وجه جميع المحاولات الطائفية، فحال دون وقوع أية اعتداءات على المسيحيين.

من جهة ثانية، سيطر الهلع على أهالي بيروت، فهاموا على وجوههم شطر القرى الجبلية المجاورة، حيث يروى أن

سكانها استقبلوا البيروتيين وأنزلوهم في بيوتهم على الرحب والسعة، ومما يذكر كذلك، أن المطران جراسيمس مسرّه وزّع، يومذاك، منشوراً باسم رؤساء الطوائف المسيحية، دعا فيه إلى فتح أديرة النصارى وبيوتهم لاستقبال إخوانهم المسلمين، ومما جاء فيه: «فإن شبعنا شبعوا قبلنا وإن جعنا فلا يجوعون إلا بعدنا».

وقد «تنذر» الناس في ذلك الوقت، وما زالوا «يتندّرون» إلى يومنا هذا بنكتة قد لا تكون صحيحة، كما قد تكون حدثت في مناسبة أخرى، وهي أن الأتراك في بيروت، لم يكن عندهم، في ذلك الزمان، سوى مدفع واحد كبير «للحشره»، كانوا قد ركزوه قرب منارة رأس بيروت، فأصدر الوالي التركي، عندما وقع الاعتداء، أوامره إلى «الطبجي» أي «المدفعجي» بإطلاق القنابل على الأسطول الإيطالي.

إلا أنه تبين بعد انتهاء المعركة، أن الطبجي لم يطلق أية قذيفة من مدفعه، فاستدعاه الوالي وسأله، بحدة، عن سبب عدم تنفيذ أوامره، فقال: «إني لم أطلق النار، يا سيدي، على الإيطاليين لعدة أسباب: أولاً: «بارود يوق»، ثانياً...».

فصاح به الوالي، «كفى! ولا حاجة لذكر باقي الأسباب»، مع العلم أن كلمة «يوق» تعني «لا يوجد»، أي أنه لا يوجد بارود، وعدم وجود البارود يكفي وحده لعدم استعمال



بارود «يوق»...

المدفع، ولا لزوم لذكر أية أسباب أخرى، فجرت هذه العبارة مجرى الأمثال.

ومهما يكن من أمر الاعتداء على بيروت، فإن ما هو ثابت وأكيد أن لا السلطنة العثمانية ولا أهالي بيروت تمكنوا من الدفاع عن «درة تاج بني عثمان» كما دعيت بيروت في ذلك الزمان، وصح عندئذٍ قول أحمد شوقي في قصيدته التي نظمها لهذه المناسبة:

«بيروتُ، مات الأسد حتف أنوفهم
لم يشهروا سيفاً ولم يحموكِ
كلٌ يصيد اللّيث وهو مقيّد
ويَعِزّ صيد الضيغم المفكوكِ
سالت دماءٌ منك حول مساجد
وكنائس ومدارس وبنوكِ
لك في حمى النيل المبارك جيرة
لو يقدرون بدمعهم غسلوكِ»

مالطه «يوق»

وعبارة «بارود يوق» تذكّرنا بعبارة «مالطه يوق» وهي شائعة في جميع أنحاء السلطنة العثمانية، لا في لبنان فحسب.

فقد استدعى يوماً أحد سلاطين الآستانة قائد جيشه وقال

له: «إن الانكليز يضايقون سفننا في البحر المتوسط، وقد علمت أنهم جعلوا جزيرة مالطة مركزاً لإسطولهم البحري، لذلك فإني آمرك أن تمحي جزيرة مالطة من خريطة الوجود».

فذهب القائد إلى مقر القيادة، حيث أنفق يومين بالتفتيش في الخرائط الحربية عن جزيرة مالطه حتى عثر عليها، فعاد وانحنى أمام عظمة السلطان قائلاً: «بادي شاه جوق يا شاه، مالطة يوق» أي: «عاش سيدي السلطان، إن مالطة أصبحت غير موجودة».

فهتف السلطان قائلاً: «وهل قضيتم على الأسطول الإنكليزي الموجود فيها؟»، فقال القائد: «كلا يا سيدي، بل محونا مالطة من الخريطة».

عسكرك «لَمْ» ونحنا «ولاد عمْ»

لما غزا ابراهيم باشا بلادنا في القرن الماضي، كان أبوه محمد علي باشا، خديوي مصر، قد جهّز له جيشاً من المحاربين المصريين، وأوصاه أن يقوم، كلما احتل بلداً، بتجنيد عدد من ابنائه، فيؤلف جيوشاً متعددة، يوزع المصريين عليها ويسلمهم قياداتها. كما أشار عليه كذلك أن يؤلف كل جيش من عناصر بشرية مختلفة، بحيث لا تكون هنالك أكثرية طائفية أو عنصرية في أي جيش من هذه

الجيوش، وذلك تلافياً لاحتمال قيام اية تكتلات معاكسة في داخلها.

ونفّذ ابراهيم باشا وصية والده، وألف عدداً من هذه الجيوش المختلطة، وأطلقها في اتجاهات معينة، فكان جبل الدروز هدفاً لواحد منها.

في ذلك الوقت كـان الدروز عـلى خلاف مـع بعض جيـرانهم، الذين سـارعوا إلى اعـلان ولائهم للمصريـين، والانخراط في جيوشهم بقيادة رجل اسمه «فندي نصار».

وكان الدروز ما زالوا، حتى ذلك الوقت، يستعملون السيوف في حروبهم، بينما كان المصريون يستعملون «البواريد» التي أطلق عليها يومئذ اسم «البواريد البراهيمية»، نسبة إلى ابراهيم باشا، والتي عرفت كذلك باسم «بندق بو فتيل» أي البندقية ذات الفتيل[1] وكانت. يومئذٍ احدث الاختراعـات الحربية.

وما زال الدروز، حتى يـومنا هـذا، يحفظون الأشعـار

(١) من مفاهيمنا نحن الشرقيين، بصورة عامة والدروز بصورة خاصة، أن لا نطلق اسماء مؤنثة على الأشياء العظيمة، ولذلك قيل يومئذ «بندق بو فتيل» لا بندقية أم فتيل مثلاً، كما سمعت مؤخراً أن أحد الناس، بعد أن أصغى إلى حديث عن عظمة القنبلة الذرية قال: «الحق إذن أن يقال: «قنبل ذري» لأن القنبلة ما عندها هالبزع».

العاديّة التي كانوا ينشدونها، في ذلك الوقت، والتي كانت تبعث الحماسة في قلوبهم، ومنها الأبيات التالية:

كبرّت هاللقمه يا «فندي» تراها نار
زَغِـرّ درابيك[1] واشـرب مَي صافيـه
نحنا بني معروف نرعى الجار ولو جار
نهوى المـزنّـد[2] فتيلك مـا نـداريـه
وسيوفنا الحدب تبري كل زنار
وسلاحنا لو صدي بالدم نجليه

وهب الدروز لمواجهة المصريين وأعوانهم، فتغلبوا عليهم وقتلوا من قتلوا وأسروا من بقي منهم على قيد الحياة. ومما يروى أن الدروز كانوا قد انكسروا في بادىء الأمر وتشتتوا، فهبّت نساؤهم تصيح: «لمن تتركوننا يا نشامى الدروز» فارتد الدروز بضراوة على المصريين وسحقوهم.

ثم احضر الدروز جملاً وصاروا يستقدمون الأسرى واحداً بعد الآخر، ويسألونه على حدة، ما هذا، فإذا قال «جمل»

(١) الدربية هي اللقمة، أي صغّر لقمتك لأنك لا تقدر أن تبتلعها، ومعناها المجازي هو أنك تعجز عن محاربتنا.
(٢) «المزنّد» هو السيف، و«الفتيل» هو بارودة «بندق بو فتيل».



وسيوفنا الحدب تبري كل زنّار

اخذوه ذات اليمين، وإذا قال «كمل»، أي إذا لفظ «الجيم» كما يلفظها المصريون، أخذوه ذات الشمال.

وبذلك «عربّوا» المصريين من أبناء البلاد، فاطلقوا سراح المصريين قائلين لهم: «اذهبوا خبروا عما حدث»، وذبحوا ابناء البلاد لأنهم اعتبروهم خونة لا غزاة.

وعندما استتب الأمر، اخيراً، لابراهيم باشا وسيطر على معظم أنحاء سوريا ولبنان وفلسطين، جرد حملة كبرى قادها بنفسه إلى جبل الدروز، وتغلب عليهم بعد معارك عنيفة، فاستسلم زعماؤهم إليه، ومما يذكر أنه أكرمهم وطيّب خواطرهم وطلب منهم أن يطلعوه على السر الذي مكّنهم في الجولة الأولى، من التغلب على جيشه، مع أنه كان يفوقهم عدةً وعدداً، فقال كبيرهم:

«عسكرك «لَمّ» ونحنا ولاد عَمّ».

التركي ولا بكِركي

بعد مذابح سنة ١٨٦٠ طالبت فرنسا بجعل لبنان ولاية مارونية مستقلة تضم المناطق المسيحية ويحكمها حاكم ماروني، واقترحت أن يكون يوسف بك كرم أول حاكم على لبنان في عهده الجديد.

ونشطت في ذلك الوقت حركات التكتل بين المسيحيين، ودعي حينذاك، أهالي القرى المسيحية في منطقة مرجعيون للمطالبة بالانضمام إلى الوطن المسيحي المنشود، وعقد لهذه الغاية مؤتمر ضم وجهاء النصارى في قرى منطقة مرجعيون، وبعد تبادل وجهات النظر اتفقوا على أن تكو ن الكلمة النهائية بالموضوع للحاج شحاده غلميه أحد أذكياء الرجال في ذلك الزمان، فوقف وقال: «التركي ولا بكركي» فصارت عبارته هذه من الأقوال المأثورة.

وهكذا فضّل نصارى مرجعيون، وجلّهم من الروم الارثوذكس أن يبقوا من رعايا ولاية بيروت التركية، على أن يصيروا من رعايا لبنان المسيحي في عهد المتصرفية.

التاريخ يعيد نفسه

وفي سنة ١٩٤٧ صار ابراهيم عازار - وهو من جزين - نائباً عن الجنوب، وكان واسع الطموح بعيد المقاصد وتربطه رابطة نسب بالشيخ بشاره الخوري، رئيس الجمهورية في ذلك الزمان، فأراد أن يجمع كلمة المسيحيين في الجنوب، وأخذ يمهّد لفصل منطقة مرجعيون الشمالية، والتي تضم أكثرية مسيحية، وضمها إلى منطقة جزين.

وشاء ابراهيم عازار أن يستمزج رأي زميله نصار غلميه بالموضوع وهو حينئذٍ من نواب الجنوب، ففطن نصار لمقاصد زميله نائب جزين وأجاب بكل بساطة: «أجدادي قالوا لأجدادك سنة الستين «التركي ولا بكركي» وأنا أقول لك الآن باسم مسيحيي قرى منطقة مرجعيون «رِبّ ثلاثين ولا جزين»».

«ورِبّ ثلاثين» هذه هي قرية صغيرة من قرى الشيعة في جبل عامل.

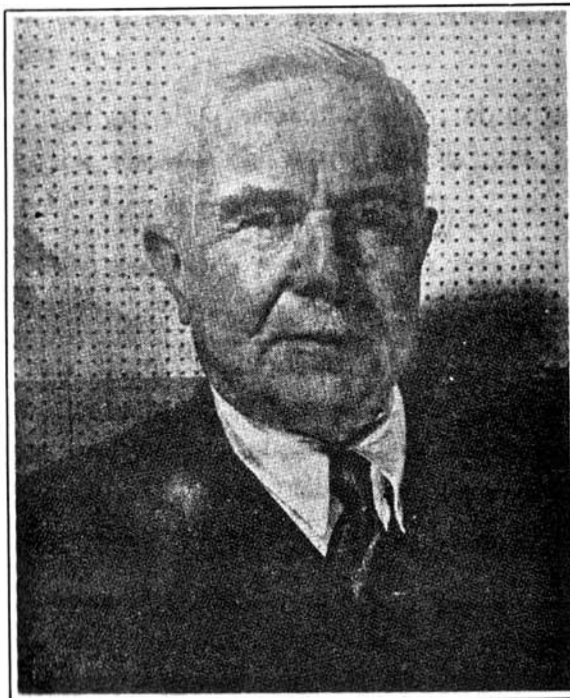
لكل خطاب جواب
طربوش فارس الخوري وسرواله

اشتهر فارس الخوري بكبر جمجمته، ومع انها، بالمعنى المجازي، كانت كبيرة جداً بما وسعت من مدارك بلغت احياناً حدود العبقرية، إلا أن حجمها الطبيعي، كذلك، كان كبيراً حتى ان فارساً كان يعجز احياناً عن العثور على طربوش يحيق بهامته الكبيرة.

وقصته ما بائع الطرابيش المصري ذائعة عند الكثيرين، ففي اثناء وجوده يوماً في مصر، احتاج إلى طربوش جديد، فطاف على جميع محلات بيع الطرابيش حتى عثر على طربوش كبير.

إلا أنه استكثر الثمن الذي طلبه البائع وعرض عليه ثمناً معقولاً، فقال البائع: «اعلم بانك لو فتشت في جميع اسواق القاهرة لما وجدت طربوشاً واحداً بكبر هذا الطربوش».

فقال فارس: «واعلم أنت أيضاً بانك لو جمعت جميع سكان البلاد العربية، لما وجدت راساً واحداً بكبر هذا الراس».



فارس بك الخوري
صاحب أكبر جمجمة في بلاد العرب

فقيل استطراداً، يومئذ، إن فارس الخوري هو صاحب أكبر رأس في البلاد العربية، وكان في ذلك الوقت من ألمع ساسة العرب.

زرته يوماً، فأكرمني بالتحدث عن والدي، قال انه كان لم يزل فتىً يافعاً عندما ارسله ذووه، في أواخر القرن الماضي، من قريته الكفير إلى المدرسة الاميركية في صيدا.

وكان يلبس طربوشاً صغيراً بالنسبة لكبر حجم رأسه، وسروالاً كبيراً بالنسبة إلى صغر حجم جسمه.

مع العلم أن أهل ذلك الزمان، كانوا عندما يبلغ ابنهم «سن الغوى» أي سن الشباب، يصنعون له سروالاً عريضاً جداً، فيأخذ عند لبسه، بتطعيجه تطعيجاً متناسقاً، من الامام ومن الوراء، ثم يثبت هذه التطاعيج بزنار يبلغ طوله عدة أذرع، فيستغرق عمله هذا وقتاً ليس بالقليل.

ولاحظ والدي، المعلم يواكيم الراسي، الذي كان مديراً للمدرسة في ذلك الوقت، أن التلميذ فارساً يتأخر عن الحضور صباحاً إلى الصف، دون سائر رفاقه، بسبب انشغاله في لبس سرواله.

فانتزعه منه وأرسله إلى مشغل المدرسة حيث أعادوا تفصيله، فصنعوا منه سروالين بالحجم المناسب.

الا أن هذا العمل لم يرق لفارس، فحرد وأضرب عن الحضور إلى الصف فاستدعاه والدي وقال له:

«سروالك أكبر من جسمك ورأسك أكبر من طربوشك، قمنا بتصغير سروالك الواسع، فلا تحوجنا إلى تصغير رأسك الكبير».

ففهم فارس بأن كبر الرأس ليس في مصلحته وارعوى.

كلمة في غير محلها

نشأ فارس الخوري في الكفير، احدى قرى منطقة حاصبيا، وعاش في دمشق التي رفعته إلى أعلى المراتب وبوّأته أرفع المناصب، وقد عرف بوطنيته وحدة ذكائه وسرعة خاطره.

ومما يروى عنه، أنه كان وزيراً للمالية في عهد الملك فيصل الذي حكم سوريا مدة قصيرة من الزمن.

وعندما تغلب الجيش الافرنسي، بقيادة الجنرال غورو، على الجيش العربي في معركة ميسلون المشهورة، نزح الملك فيصل عن سوريا ودب الذعر في قلوب انصاره ومساعديه.

أما الوزراء فمنهم من أراد النزوح، ومنهم من عزم على الاستقالة، فقال فارس الخوري: «نحن هنا أهل البلاد، ومن العار أن نتخلى عن مسؤولياتنا قبل أن يأتي من يتسلمها منا حسب الأصول».

وعندما دخل الجنرال غورو إلى دمشق، نزل في قصر المهاجرين، الذي كان ينزل فيه الملك فيصل قبله، وأقيمت يومئذ في القصر، على شرفه، مأدبة كبرى دعي إليها الوزراء والأعيان.

وفي أثناء الطعام أراد الجنرال غورو أن يتهكم على الملك فيصل فقال: «هل كان ملككم فيصل يسكن في هذا القصر الجميل؟».

فأجاب فارس الخوري، دون سائر الموجودين: «نعم يا صاحب الفخامة، كان الملك فيصل يسكن في هذا القصر الذي بناه والٍ تركي اسمه ناظم باشا، ثم حل فيه أحمد جمال باشا، ثم الجنرال اللنبي، ثم الملك فيصل، والآن تحلّون انتم فيه، وجميع الذين ذكرتهم أكلنا معهم في هذه القاعة، ولكنهم رحلوا جميعهم، وبقي القصر وبقينا نحن».

فظن الحاضرون عندئذ، أن الأرض ستنشق وتبتلع فارس الخوري، وقال أحد الحاضرين مستدركاً: «كلمة فارس بك في غير محلها» إلا أن الجنرال غورو تظاهر كأنه لم يفهم شيئاً.

مر على هذه الحادثة ربع قرن من الزمن، كان الافرنسيون خلاله، قد خسروا كثيراً من مكانتهم السياسية، وضعف شأنهم بعد هزيمتهم أمام هتلر. كما كانت الجيوش الانكليزية قد دخلت إلى سوريا ولبنان، واخذت تعمل على

زحزحة الافرنسيين والحلول محلهم، فاطلق السوريون واللبنانيون يومئذ شعار الجلاء وأخذوا يجاهدون من أجله.

كان فارس الخوري قد أصبح في ذلك الوقت رئيساً للمجلس النيابي، أما الرجل الذي قال في مأدبة قصر المهاجرين: «كلمة فارس بك في غير محلها»، فقد صار نائباً من نوابه.

وحدث أن وقف هذا النائب، في أحد الأيام، خطيباً في المجلس، وأخذ يهاجم الافرنسيين بشدة مطالباً بجلائهم أو إجلائهم مهما كلف الأمر.

وبعد أن أنهى كلمته، اقترب من فارس الخوري وسأله قائلاً: «ارجو أن تكون كلمتي في محلها»، فأجاب: «ليتها كانت في غير محلها».

مصلحة الأمير لا مصلحة الباذنجان

يحكى أن الأمير بشيرا الشهابي كان عنده طباخ اسمه سرور، وكان ماهراً وذكياً وخفيف الدم حتى قيل ان الأمير كان يستطيب نكهة حديثه، مثلما كان يستمرىء طعم مآكله.

وفي أحد الأيام قدم سرور إلى سيده طعاماً من الباذنجان المتبّل، وعندما شرع الأمير بتناوله وجده طيباً جداً، فاستدعى سروراً وقال له: «ما أطيب هذا الباذنجان وما ألذ طعمه!».

فقال سرور: «إن الباذنجان، يا سيدي، هو أفضل المآكل وأرفعها قدراً، فإن أكلته متبلاً بقي طعمه على لسانك طول النهار وإن أكلته مقلياً أكلت أصابعك معه، وإن أكلته مكبوساً فهو أشهى المكابيس، وإن أكلته محشواً كان شيخ المحاشي».

فانفتحت شهية الأمير وبالغ في التهام الباذنجان، إلا أنه بعد ساعة من الزمان، عاد فاستدعى سروراً وقال له «ما هذا الباذنجان المنحوس الذي قدمته إليَّ، فإني أشعر بانتفاخ في بطني وألم في رأسي».

فقال سرور: «الباذنجان، يا سيدي، طعام رديء، فإن أكلته متبّلاً سبب لك انتفاخاً في البطن، وإن أكلته مقليّاً سبّب لك تضخماً في المصران، وإن أكلته مكبوساً سبّب لك غشياناً في نظرك، وإن أكلته محشواً سبّب لك أحلاماً مزعجة، وإن...

فصاح به الأمير: «ويحك أيها المرائي، منذ ساعة جعلت الباذنجان أفضل المآكل، وها أنت الآن تذمه وتجعله أساس كل العلل».

فأجاب: «العفو يا سيدي، فأنا عبد سعادتكم، لا عبد سعادة الباذنجان، لذلك فأنا أتكلم بما يلائمكم لا بما يلائم مصلحة الباذنجان».

قيل إن هذه القصة وافقت مزاج الأمير بشير وزادته علماً بأن الناس لا رأي لهم بحاكمهم، بل ان رأيهم دائماً هو رأي حاكمهم، ولذلك لم يكن يهتم بمعرفة رأي الناس وإرادتهم، بل كان يفرض رأيه على الناس فيتبنونه ويتحمسون له، وقديماً قيل، كلام الملوك ملوك الكلام.

الدنيا مع الواقف

كان المتصرف مظفر باشا شيخاً عاجزاً، وكانت زوجته متحكمة به، فطلبت منه يوماً أن يعيّن سائس حصانها قائمقاماً.

وكان السائس هذا أمياً فتعذّر على الباشا إجابة طلب زوجته، إلا أنه إرضاءً لخاطرها وعد السائس بأن يلبي له أي مطلب آخر يطلبه منه.

فاقترح الرجل على المتصرف أن يسمح له بالدخول إلى مجلسه عندما يكون أعيان البلاد موجودين عنده، وأن يتقدم منه ويهمس في أذنه شيئاً، فيبتسم المتصرف له ويقول: «نعم».

وهكذا كان، وبقي المتصرف مدة من الزمن محتاراً بأمر الرجل الذي دخل وهمهم في أذنه همهمةً لا معنى لها ومضى ولم يعد.

فاستدعاه يوماً وسأله عن الفائدة التي جناها من عمله المشار إليه، فقال الرجل «يقول المثل، يا سيدي، إن الدنيا مع الواقف، وعندما دخلتُ وهمستُ لك شيئاً فابتسمتَ لي وقلتَ «نعم»، تساءل الموجودون عمن أكون حتى تكون لي هذه الدالّة عليك، ولم يلبثوا أن اهتدوا إليَّ وأخذوا يتملقونني ويتسابقون على كسب ودّي، فاغتنمت الظروف وجنيت منهم فوائد جمة أغنتني عن الوظيفة».

حط بالخرج

وكان واصا باشا متصرف جبل لبنان، كلما قال له قائل إن الحالة سيّئة والفساد يعم البلاد، يجيب قائلاً: «حط



واصا باشا
رنّوا الفلوس على بلاط ضريحه

بالخرج»، وقيل إن واصا باشا لم يحفظ من اللغة العربية سوى هذا المثل الذي لاءم هواه، لأنه كان حاكماً فاسداً عمتّ الرشوة في عهده جميع مرافق الدولة.

وعندما مات واصا باشا نقلت جثته في مأتم رسمي كبير ودفنت في الحازميه، حيث لا يزال قبره موجوداً إلى يومنا هذا في المكان المعروف باسم «قبر الباشا».

ومما يذكر أن عدداً من خطباء ذلك الزمان تناوبوا الكلام على قبره مؤبنين «فقيد النزاهة والشهامة والنبل» الخ. على حد قول بعضهم، وإذا بالشاعر تامر بك الملاط يقف أخيراً ويقول:

«قالوا قضى واصا وواراه الثرى
فأجبتهم وأنا الخبير بذاته
رنّوا الفلوس على بلاط ضريحه
وأنا الكفيل لكم برد حياته»

ونزل تامر الملاط عن القبر وتوارى عن الأنظار، وبقي هذان البيتان من الشعر خالدين تتناقلها السنة الناس حتى قيل ان مكاريين كانا عائدين يوماً من بيروت ووقفا يتحاسبان في الحازمية، قرب قبر الباشا، فسقطت قطعة من النقود ورنّت، فقال أحدهما للآخر مازحاً: «إحذر أن يسمع واصا باشا فيقوم من قبره».

ولم يكن حظ المتصرف مظفر باشا مع تامر بك الملاط أفضل من حظ زميله واصا، فقد اتخذ مظفر باشا لأمانة سره رجلاً من آل الأسود، كان يجلسه دائماً في ديوانه ويطلعه على أسراره ويسمح له بالتدخل في شؤونه، كما كان يقتني كلباً أبيض يحضره معه إلى ديوانه، فنظم فيه تامر الملاط البيتين التاليين:

«صار «المزفّر» في البلاد مظفراً
وغدا الجنود له تقوم وتقعدُ
وأمامه كلبان كلب أبيض
يرعى الوفاء له وكلب «أسودُ»

عندما مشى الذيب والنعجة سوا

كان متصرف جبل لبنان فرانكو باشا قد اعتنق سياسة «مراعاة الخواطر» و«تمشيط الذقون» فأفضت به إلى الجنون، وجاء خلفاً له المتصرف رستم باشا الذي اشتهر بالحزم ووضع الأمور في نصابها.

قيل ان رستم باشا عندما وصل إلى بلادنا استدعى صديق والده فخري بك رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية في ذلك الوقت وصاحب الخان المعروف باسمه حتى يومنا هذا وسأله عَمَّن هم كبراء البلاد وأصحاب الشأن فيها.

فقال فخري بك: «لا كبير في بلادنا إلا من شملتموه برعايتكم، ولا حقير إلا من حجبتم عنه حمايتكم، ولا شأن إلا لِمَن أردتم أن تجعلوه من أصحاب الشأن».

فوقعت نصيحة فخري بك موقع الرضى من نفس رستم باشا واتخذها ديدناً له في سياسته، وأخذ يرفع من يريد ويخفض من يريد حتى قيل ان رستم باشا غيّر واجهة لبنان، ويؤكد العارفون ببواطن الأمور أن أسماء كبيرة اختفت يومئذٍ من عالم الصدارة، ولمعت أسماء أخرى جديدة ما زال أبناؤها وأحفادها يتصدّرون مجالس الوجاهة حتى أيامنا هذه، بفضل رستم باشا.

وقد سمعتُ يوماً أحد الناس، في معرض تهجّمه على أحد النواب، يستنزل اللعنات على رستم باشا الذي أوصل جد ذلك النائب إلى أحد المناصب الحساسة ليصبح اليوم أبناؤه وأحفاده من أصحاب الحسب والنسب.

وإذا كان رستم باشا قد استحق اللعنة عند هذا الرجل، لغاية في نفسه، فإنه ولا شك، قد استحق التقدير والاحترام من مجموع الشعب اللبناني في ذلك الزمان، لأنه وطّد الأمن وفرض القانون حتى قيل إنه: «مشّى الذيب والنعجه سوا».

ومما يُحكى عنه أنه عندما وصل إلى لبنان، وكان ذلك سنة ١٨٧٣، أخذ يستدعي رؤساء الإدارات مستعلماً عن أحوال البلاد، ولما وصل الدور إلى أميرالاي الجندرمه الأمير

سعيد شهاب قال هذا: «الأمن مستتب في البلاد، وقد ظهر من مدة قصيرة شقيّان هما الغزال والعاقوري وكانا يعكران صفو الأمن في الشمال، فأمر سلفكم فرانكو باشا بإدخالها في سلك الجندرمه، فهدأت الحالة وساد الأمن».

فطلب رستم باشا إحضار الرجلين، فأُحضرا حالاً، وبعد أن سأل كل واحد عن اسمه، أمر بأن تخلع عنهما البذلة العسكرية، وبأن يرجعا إلى ما كانا عليه من أعمال الشقاوة.

ولم يمر سوى وقت قليل حتى استأنف الشقيان أعمال الشغب والاعتداء بعنف أكثر من ذي قبل، فأعطى رستم باشا أوامره المشددة بسحقهما، وبعد أيام قليلة قتل أحدهما وألقي القبض على الآخر فشنق في بيت الدين، وبذلك استتب الأمن في البلاد طوال حكم رستم باشا الذي دام حوالي عشر سنوات.

ويحكى عنه كذلك، أنه ضرب يوماً سائسه كفاً، وأمره أن يذهب ويشتكي عليه، فذهب السائس إلى أحد الكتّاب في سراي بعبدا وطلب منه أن يكتب له عرض حال ضد المتصرف فأبى، ثم مضى إلى كاتب آخر فرفض كذلك، حتى وجد أخيراً من تجرّأ وكتب له عريضة الشكوى التي ما أن وصلت إلى رئيس المحكمة الأمير فندي شهاب، حتى حملها وطلب مقابلة رستم باشا وأطلعه عليها، فما كان من رستم

باشا إلا أن أمره بتعيين جلسة للمحاكمة والحكم عليه حسب القانون.

وهكذا صدر الحكم على المتصرف بدفع ليرة عثمانية ذهباً إلى سائسه، وبهذه الطريقة استتب العدل كذلك في عهد هذا الحاكم العظيم.

فخري بك حاكم بيروت

ويقول إحسان بك المخزومي، أن فخري بك هذا، كان قد جلبه إبراهيم باشا معه من مصر وعيّنه متسلماً على بيروت، أي حاكماً عليها، وكان ذلك سنة ١٨٣١، وعندما جلا إبراهيم باشا عن بلادنا سنة ١٨٤٠ بقي فخري بك في بيروت وأنشأ فيها الخان المعروف باسمه حتى يومنا هذا، ثم لم يلبث أن ذهب إلى الآستانة، عاصمة السلطنة العثمانية، حيث أسندت إليه إحدى الوظائف الهامة، وفخري بك هو والد الداماد أحمد نامي بك زوج ابنة السلطان عبد الحميد، والذي صار في ما بعد رئيساً لدولة سوريا، ويرجح إحسان بك أن رستم باشا كان قد اتصل بفخري بك في الآستانة قبل مجيئه إلى لبنان سنة ١٨٧٣ والله أعلم.

«المصريات» للمصريين

ويقول شيخ راوية من كبار معمري رأس بيروت، ان

فخري بك كان يقود عسكر إبراهيم باشا المصري، وكان من جاري عادته أن يجلس أمام مقر القيادة المصرية في زقاق البلاط قرب بيت حماده، ويتفرّس في وجوه عابري السبيل لأنه كان صاحب «شوفه» وكاشف أسرار فلا تخفى عليه خافية.

وحدث يوماً أن مرت أمامه فتاة مسرعة بكامل زينتها، ثم لم تلبث أن عادت منهوكة ومرتبكة، فقال فخري بك لِمَن معه: «ذهبت فتاة وعادت إمرأة» وناداها وسألها أين كانت، فقالت: «عند خالتي».

فأمر فخري بك بإحضار الخالة هذه فإذا هي كذلك خائفة ومرتبكة، فصاح بها: «يا قوّادة، كم قبضت إجرة «تقويد» على ابنة شقيقتك؟».

فارتعدت المرأة وقالت: «عشرين مصريه»، فقال فخري بك: «المصريات للمصريين والمرأة إلى المحاكمة»، وأخذ العشرين مصرية ووزّعها على جنوده المصريين وأرسل المرأة إلى المحاكمة.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن إبراهيم باشا كان قد الغى النقود التركية من البلاد وعمم مكانها النقود المصرية، فصرنا نقول: مصرية ومصريات ومصاري حتى يومنا هذا.

«نحس بتعرفو ولا جيد تتعرف عليه»

كان الشيخ رشيد الخازن من أصحاب الوجاهة في عهد

رستم باشا، وقد عرف بخفة دمه وسرعة خاطره، كما اشتهر بشجاعته وقوة شخصيته حتى انه اصطدم برستم باشا في عدة مواقف وناوأه في بعض القضايا، وعندما صدر الفرمان الهمايوني بنقل رستم باشا من متصرفية جبل لبنان وتعيين سواه، قدم الشيخ رشيد لوداعه، فقال له رستم باشا: «لا شك أنك مسرور بمجيء متصرف آخر بدلاً مني» فأجاب الشيخ: «على العكس، يا حضرة الباشا، فالمثل يقول: «نحس بتعرفو ولا جيد تتعرف عليه».

العلة في الأساس

تم سنة ١٩٢٦ وضع أول دستور للجمهورية اللبنانية، بإشراف لجنة من رجال الفكر والسياسة، كان على رأسهم ميشال شيحا، الذي ما أن فرغ من وضع مسودة الدستور وقراءتها على مسامع أعضاء اللجنة حتى استطرد قائلاً: «هذا دستور لبنان المكتوب، أما دستوره الحقيقي غير المكتوب فهو أن لبنان لا يحكم إلا بالتسويات وأنصاف الحلول».

سرايات وقبضايات

«المناطق اللبنانية تحت سيطرة الاقطاعيين والمدن في قبضة القبضايات»، بهذا برر الأمير جورج لطف الله فشله، عندما جاء يطلب من اللبنانيين أن يبايعوه بالإمارة فخذلوه.

ففي سنة ١٩٢٩ أشيع أن الافرنسيين يريدون أن يقيموا عرشاً في لبنان، مثلما فعل الانكليز في الأردن، وأن يبوئوا فيه أميراً مسيحياً، فجمع الأمير جورج لطف الله ملايينه وجاء من مصر «يحاول ملكاً أو يموت فيُعذَرَ»، وبعد أن أنفق أمواله هدراً على السياسيين ورجال الصحافة، عاد خائباً إلى مصر وقال إنه لم يكن يعرف أن أسياد لبنان هم الاقطاعيون والقباضايات.

ويقال إن حبيب أبي شهلا كان يغمز من قناة رياض الصلح، عندما قال في أحد مجالسه، إن الوصول عن طريق القبضايات أسلم عاقبة من الوصول بواسطة الاقطاعيين، لأن «أبي شهلا» كان يسدد حسابات القبضايات بالمكافآت والخدمات، في حين كان الصلح مديناً بكرامته لأحمد الأسعد

للحصول بواسطته على مقعد في مجلس النواب.

هذا وتعد طبقة القبضايات من الطبقات المميزة في لبنان، مهما اقترنت تصرفاتها بمغايرات وتجاوزات، وقد فسر أحد علماء الاجتماع وجود هذه الظاهرة في المجتمعات المتخلفة، كدليل على تعطش هذه المجتمعات إلى بطولات حقيقية قائمة على قواعد وطنية أو منبثقة عن بواعث إنسانية، لا عن ضغائن طائفية أو مطامع باقتناص مكاسب مادية.

وللقبضايات في لبنان مواقف تتجلى فيها بعض البطولات، وإن اختلفت الأساليب والغايات، ولو أحسن المجتمع استغلال شجاعتهم وفسح لهم في مجال البطولات لحققوا بعض المكاسب الوطنية، ولم يضطروا إلى تأجير طموحهم وشجاعتهم إلى رجال السياسة ومحترفي المؤامرات والحرتقات.

كان الياس الحلبي أشهر قبضايات بيروت في مطلع القرن الحالي: يقول مواطنوه من أبناء حي «المصيطبة»: «كان بذمته ثلاثة وأربعون قتيلاً، إلا أنه لم يعتدِ على أحد، وكان مؤمناً صادق السيرة والسريرة، متوقد الحمية والأريحية».

وعندما مات سنة ١٩٣٦ أقيم له مأتم شعبي كبير، وحملت الجماهير نعشه على الأكف وطافت به في شوارع بيروت. وعندما اقترب موكب جنازته من مقهى «كوكب الشرق» في بناية ابراهيم سرسق الكائنة في زاوية طريق



الحاج حسين خريرو
أحد مشاهير قباضايات زمانه

الشام ـ البرج، هبط جميع الذين كانوا في المقهى ـ وهو حينذاك أكبر مقاهي المدينة ـ لمواكبة المأتم، كما أغلق شاغلو البناية محلاتهم ومكاتبهم والتحقوا بالجنازة، ولم تنقضِ سوى دقائق قليلة حتى انهارت البناية، بسبب أعمال الترميم في أحد أجزائها، فنجا روّاد المقهى وسائر شاغلي البناية من الموت.

وقد قال أحد رجال الدين، عندما وقف مؤبناً، وبعد أن أشار إلى الحادث، أن الله لا شك قد حقق هذه المعجزة بواسطة هذا الرجل، فأنقذ بموته، كما كان ينقذ في حياته أرواح الكثيرين.

الله يجيرنا من «فينات الرجال»

يُقال «لكل جواد كبوة ولكل رجل فينة»، و«الفينة» عند اللبنانيين هي موقف ضعف من رجل قوي، أو خساسة من رجل كريم، ولذلك يقال: «الله يجيرنا من «فينات الرجال».

ذاع اسم ملحم زين الدين، كأحد كبار القبضايات، في العشرينات من القرن الحالي، ونسبت إليه بعض أعمال الشقاوة، وكان مرهوب الجانب، سريع البطش، لذلك كان مجرّد ذكر اسمه يثير الهلع في النفوس. وكان يعتصم في الجبال ويكمن لعابري السبيل، فيتناقل الناس أخباره كالأساطير.

عطش يوماً فأقبل على معّاز يرعى قطيعه في مكان قريب

وطلب منه أن يسقيه من مطرته. ولم يدر بخلد المعاز أن القادم الغريب هو ملحم زين الدين، فأجاب: «المطرة فارغة»، فقال ملحم: «أنت كذاب، وكيف يمكن أن تأتي إلى هنا بمطرة فارغة معلقة برقبتك»، فما كان عندئذ من المعاز إلا أن أخذ بتلابيب ملحم زين الدين ولاحه وطرحه أرضاً وانتزع منه أسلحته وقال له: «قم وارجع من حيث أتيت ولا «تبتليني بدمك».

فقام ملحم يجر أذيال «الفينة»، ولجأ إلى مكان قريب يستعيد روعه فيه، فمر به رجل، فناداه ملحم وقال له: «أنا ملحم زين الدين، وقد أهلكني العطش، فهل بامكانك أن تدبر لي شربة ماء، من أي مكان قريب؟».

فتهيب الرجل وطيب خاطره ومضى مسرعاً، فالتقى بالمعاز نفسه وقال له: «أتعلم أن ملحم زين الدين موجود قريباً منك وهو عطشان». فانتفض المعاز وقال: «يا حيف! أيعطش ابن زين الدين وأنا هنا». وهز مطرته ليتأكد من وجود الماء فيها، وقبض على جدي ليذبحه له، وقال للرجل: «امشِ معي لتدلّني إليه».

وسار المعاز والرجل إلى حيث كان ملحم زين الدين، وما أن رآه المعاز حتى صاح به: «أهذا أنت أيها المحتال، وقد بلغت بك الوقاحة حد الادعاء أنك ملحم زين الدين» وركله

برأس مداسه وقال له: «قم وارحل من جميع هذه الأراضي وإلا ذبحتك».

فقام ملحم ومضى توّاً إلى أقرب مخفر وسلّم نفسه، بعد أن تاب على يدي ذلك المعاز.

بأس الأسد في أنيابه وابن الحكومة في ثيابه

المعروف أن عسكر «الباش بزق» التركي كان عبارة عن مجموعات من المرتزقة تجندهم الدولة في ظروف طارئة ولغايات موقتة، كالضغط مثلاً على بعض القرى التي تتخلف عن دفع الضرائب فيحتلون بيوتها ويستحلون خيراتها وحرماتها. ولم تكن الدولة تقدم لهم «ألبسة عسكرية»، بل كانوا يحتفظون بثيابهم المختلفة الأزياء والمظاهر، لذلك اشتهروا بقلة القدر والاعتبار.

وفيما كانت جماعة من عسكر «الباش بزق» أربى عددها على العشرة أنفار متوجهة في أحد الأيام، لقضاء إحدى المهمات، قرب معلقة زحلة، تصدّى لها أحد الأشقياء، فهرب بعض أفرادها واستسلم الباقون، فجرّدهم الرجل من أسلحتهم ومما ملكت ايمانهم. وعرف يومئذٍ أن بطل الجريمة كان رجلاً بمفرده، ونمي إلى السلطة عن مكان وجوده فتوجه إليه اثنان من رجال الدرك النظاميين واعتقلاه دون مقاومة تذكر.

قيل إن أحد رجال الدولة أمر أن يؤتى إليه بالرجل وسأله كيف تجاسر على جماعة «الباش بزق» ثم تخاذل أمام اثنين فقط من رجال الدرك، فقال «المثل بيقول، يا سيدي، «بأس الأسد بنيابو وابن الحكومه بثيابو»».

أما كلمة «باش بزق» فمعناها باللغة التركية «بدون رئيس» أي عسكر بدون قائد أو بدون نظام.

الحكومة «مرا»

يروى أن شيخاً من إحدى قرى الجنوب كانت له معاملة عقارية في محكمة حاصبيا، فطلب منه الموظف المسؤول أن يحضر شهادة من مختار القرية تثبت ملكيته للعقار موضوع الدعوى، وأجّل النظر فيها مدة شهرين.

وفي الجلسة الثانية أحضر الشيخ، الشهادة المطلوبة وقدّمها إلى المسؤول فقرأها وضمّها إلى ملف المعاملة، وطلب من الشيخ أن يحضر شاهدين يثبتان أنه يتصرف بالعقار المذكور منذ خمسة عشر عاماً، وأجل الدعوى شهرين آخرين.

وفي الجلسة الثالثة حضر الشيخ ومعه شاهدان أيّدا دعواه، وبعد أن سمع المسؤول أفادتيهما قال ان الإدارة قررت تعيين خبير للكشف محلياً على العقار وإبداء الرأي، وسأل الشيخ إذا كان مستعداً أن يؤمّن إجرة الخبير.

فبحلق الشيخ بوجه المسؤول ولم يجب شيئاً، فقال له المسؤول بحدّة: «لماذا لا تتكلم؟ أجب على سؤالي».

فقال الشيخ: «صحيح إن الحكومه مرا لتصير الحكومه زلمي منبقى نحكي» وخرج...

الله أكبر الشهود

من القصص المنقولة عن لسان القاضي الأستاذ بدري طليع، أن دعوى عرضت عليه كان أحد طرفيها كاهناً، وعندما طلب منه الأستاذ طليع أن يدلي بإفادته طفق يفنّد مزاعمه مستشهداً بالله على صحة أقواله.

فسأله القاضي أخيراً عما إذا كان لديه شهود يؤيدون كلامه، فأجاب: «ولو! الله أكبر الشهود، يا حضرة القاضي».

فمال القاضي عندئذ إلى خصمه وسأله عما إذا كان لديه، هو الآخر أي شهود، فأجاب: «الشاهد ذاتو، سيدنا، وهو أكبر الشهود، ولكن بما أنه يتعذّر على المحكمة جلبه، عز وجل، لسماع شهادته، فإني أقبل أن يقسم حضرة المحترم، بالقربان المقدس، على صحة كلامه، واحكموا بعد ذلك بما ترونه مناسباً».

«لوْ كنت من أصحاب الشَّرف...»

كانت الكاتبة الافرنسية «كلارا كاندياني» قد زارت لبنان والبلاد العربية، في وقت سابق، وبعد عودتها نشرت عدة مقالات عن لبنان في الصحف الافرنسية، جاء في أحداها، وفي معرض كلامها عن الفنون الجميلة في لبنان، أنها لم تشاهد في بيروت سوى تمثال واحد لأحد كتاب القرن الماضي، الشيخ ابراهيم اليازجي، وبالقرب منه اعلان مكتوب بخط عريض «يا قليل الشرف لا تبوّل هنا».

وقدّمت كلارا كاندياني، بالمناسبة، نصيحة إلى اللبنانيين، أن يلغوا تمثال اليازجي، وينشئوا مكانه بيت خلاء، لكي يبدأوا صعود السلم من أدنى درجاته. وقد قامت الحكومة في ما بعد بنقل تمثال اليازجي من مكانه القديم، في أول زقاق البلاط، إلى وزارة التربية.

ومما يذكر أن عادة التبويل على جدران الشوارع كانت شائعة كثيراً في بيروت، وكانت زوايا الشوارع والمنعطفات، أمكنة صالحة لقضاء الحاجات عند الاضطرار، لذلك كان

أصحاب الأبنية المجاورة يلجأون، أحياناً، إلى كتابة بعض العبارات على الجدران، مثل «يا صاحب الشرف، أو يا قليل الشرف لا تبوّل هنا».

وكان الدكتور أيوب ثابت أول من تنبّه لمثل هذه المشاهد المخجلة، فكان دائماً أول قرار يصدره، في المرات التي صار فيها وزيراً للداخلية، هو قرار ملاحقة المبوّلين في الشوارع.

وفي أحد الأيام لاحظ الدكتور ثابت أن عمليات التبويل ما زالت سارية، بالرغم من قراره المذكور، فاستدعى أحد كبار رجال الشرطة وأنّبه على اهمال تنفيذ ذلك القرار، وأمر باحضار كل مخالف إلى مكتبه في وزارة الداخلية، لكي يتأكد من قيام رجال الشرطة بمسؤولياتهم.

ولم تمر سوى ساعات قليلة حتى جاء أحد رجال الشرطة برجل أدخله إلى ديوان الوزير وقال: «هذا الرجل، يا سيدي، قبضنا عليه بالجرم المشهود، وهو يبوّل على الحائط، بالرغم من الكتابة الموجودة: «يا صاحب الشرف لا تبوّل هنا».

فقال الرجل: «ومَن أخبركم أني من أصحاب الشرف؟ لو كنت من أصحاب الشرف كنت الآن «عملتها» في لوكندة أميركا» - وقد كانت لوكندة أميركا في تلك الأيام من أشهر لوكندات بيروت.

فضحك الدكتور ثابت وأمر بالإفراج عن الرجل.

ومما يروى أنه، بعد اعلان الدستور العثماني، سنة ١٩٠٨، حدث أن قبض أحد رجال الشرطة على رجل يقضي حاجته في الشارع، فاحتج هذا وسأل بأي حق يقبض عليّ، فقال الشرطي انه يقبض عليه باسم القانون، فصاح الرجل: «وأنا «أعملها» هنا باسم الدستور الذي أعطانا الحرية».

خبز وملح

دعي أمين الريحاني إلى الكلام في إحدى المناسبات، شرط أن لا يتطرق إلى السياسة والدين، فوقف وقال: أنا الآن كمن يدعى إلى الطعام شرط أن لا يأكل خبزاً ولا ملحاً. فالسياسة والدين هما خبز اللبنانيين وملحهم.

بيت الدوماني في آخر شارع البستاني

بعد منتصف إحدى الليالي الباردة كنت عائداً إلى منزلي. أجتاز الشوارع والمنعطفات بسرعة، وقد خلت من عابري السبيل وروّاد المعاصي، فقلت، أين أبناء الليل لا يوجد منهم «دومري» واحد في هذا المكان؟ بلى، أنا هو الدومري الوحيد - إذا جاز لي أن أستعمل كلمة دومري إيجاباً لأننا لا نستعملها إلا في حالة النفي.

وخطر ببالي عندئذٍ أن أحدد مواصفات الدومري:

- إنه لا يقتني سيارة خصوصية، طبعاً، ولا يطيق استدعاء سيارة عمومية في مثل هذه الحالة.
- الدومري كهل ومعطفه من أيام الشباب، لذلك لا يلبسه إلا اضطراراً، وشمسيته «تدلف» فوق رأسه من ثلاثة ثقوب، ولباس رأسه، في أحسن الحالات، «بيريه» يخفيها في خلفيات جيوبه للحشرة، فلا يلبسها إلاّ استراقاً.
- حذاء الدومري يمسحه بيده لذلك يبوخ عند هطول أول عشر نقاط من المطر، ورباط عنقه تقلص جزؤه العريض

من كثرة الاستعمال فأخفى جزءه الطويل في فتحة قميصه الذي قلبت قبته منذ شهرين.

- الدومري يكره الشوارع المتلألئة ويتنكّب كذلك الأزقة المظلمة لأن الكلاب تعرف رائحة ثيابه فتنهشها.
- الدومري بليد متردد لا يمشي حثيثاً لئلا يصل بسرعة إلى حيث يقصد، إذ لا هدف لديه يسعى إليه.

وعلى غير قصد مني صرت أتسكّع في مشيتي حتى كدت أتعثر بدومري آخر، هو حارس الليل المنتصب قرب العمود كأنه «عامود» إمعاناً بالمكابرة والصمود، فسألني، حتى لا أقول انتهرني، عما أريد.

قلت، «أين بيت الدومري؟»

أجاب بعفوية، «بيت الدوماني في آخر شارع البستاني، فهمت ولِلا بوديك؟».

ففهمت وأسرعت الخطى لئلا يوديني إلى «بيت خالتي» لأن آخر مواصفات الدومري أن يبيت ليلته في السجن بدون سبب.

أخيراً

هذا الكتاب: لئلاً تضيع

وقعت سنة ١٩٤١ معركة ضارية بين جيوش الحلفاء وبين الجيش الإفرنسي، كانت ساحتها قرية إبل السقي، وذهب ضحيتها ثلاثة عشر قتيلاً من أبناء القرية. فتشتت سكانها عندئذٍ كيفما وأينما قادتهم أرجلهم، وعندما استقرت الأمور أخذوا يعودون أفواجاً وأفراداً، وكنت أنا واحداً منهم، وحدث أن سألت أحدهم، مجاملة و«استطماناً» «أين هربت ساعة المعركة؟». فانتفض وقال: «عليم الله، أنا ما هربت بس «انحدفت» صوب حاصبيا».

فأعجبتني كلمة «انحدفت» هذه كثيراً، ونقلت القصة في ما بعد إلى الشيخ سعيد تقي الدين، الذي روى بدوره قصة رجل من إحدى القرى اللبنانية تشاجر مع جماعة من جيرانه، وعندما سأله الشيخ سعيد عن القضية، قال: «شي ما بينطاق يا شيخ سعيد، ظلوا يتبهوروا، ويشلقحوا حكي حتى «تجمهرت» بالتالي وهجمت...».

ثم قال الشيخ سعيد: «لو جمعنا جميع علماء اللغة العربية

لما استطاعوا أن يجدوا أبلغ من كلمة «انحدفت» وكلمة «تجمهرت» لمثل هاتين المناسبتين»، وابتسم الشيخ سعيد وأضاف: «وأغلب الظن ان قائلي هاتين الكلمتين ينتميان إلى نفس المعشر والعشيرة.

ثم نقلت هذه القصة المزدوجة، بعد ذلك، إلى أحد الأصدقاء، فروى لي بدوره قصة جماعة من قرية لبنانية قدموا إلى قرية أخرى ليخطبوا فتاة، «عن يد» أحد مشايخ هذه القرية، وبعد أن تكلم كبير الجماعة، وطلب يد الفتاة من أشقائها، قال كبير الأشقاء، إن المرحوم والدهم لم تمضِ على وفاته سوى أشهر قليلة فقط، ولذلك فهم يرفضون أي بحث بمثل هذه الأمور. فرد عليه الشيخ المذكور قائلاً: «يا ابني، النصيب المصاقب مش دايماً بيصاقب، إن كانت مش قضية تعجيز أوعدوهم وأبعدوهم».

وأضاف الراوي قائلاً: «إجمع يا أخي مثل هذه القصص الشعبية والكلمات الرائعة في كتاب واجعل موضوعه: «لئلا تضيع».

فهرس

للمؤلف

لئلا تضيع	الطبعة الأولى	١٩٧١
لئلا تضيع	الطبعة الثانية	١٩٧٨
لئلا تضيع	الطبعة الثالثة	١٩٨١
لئلا تضيع	الطبعة الرابعة	١٩٨٥
في الزوايا خبايا	الطبعة الأولى	١٩٧٤
في الزوايا خبايا	الطبعة الثانية	١٩٧٩
في الزوايا خبايا	الطبعة الثالثة	١٩٨٣
حكي قرايا وحكي سرايا	الطبعة الأولى	١٩٧٦
حكي قرايا وحكي سرايا	الطبعة الثانية	١٩٧٧
حكي قرايا وحكي سرايا	الطبعة الثالثة	١٩٧٨
حكي قرايا وحكي سرايا	الطبعة الرابعة	١٩٨٢
شيح بريح	الطبعة الأولى	١٩٧٨
شيح بريح	الطبعة الثانية	١٩٨٠
الناس بالناس	الطبعة الأولى	١٩٨٠
الناس بالناس	الطبعة الثانية	١٩٨٣
حيص بيص	الطبعة الأولى	١٩٨٣
المؤلفات الكاملة		



لئلا تضيع

... في هذا الكتاب حكايات وطرائف، قصص وأخبار نصائح وأقوال. حكم وأمثال، أمضى سلام الراسي عدّة سنوات يحصدها عن ألسنة الناس الذين مات بعضهم وشاخ البعض الآخر منهم، فذبلت في ذاكرتهم الأحداث والأحاديث، فكان للمؤلف فضل حفظ هذا التراث الشعبي العريق، إذ قام ينفض عنه غبار النسيان ويُعيد لقصصه رونقها وجمالها، ولأخباره حلاوتها وطراوتها، جمعها في كتابه هذا **لئلا تضيع** الذي يدلّ اسمه على مضمونه، يُقدّم طائفة من هذه المأثورات بأسلوب قصصي تغلب فيه الطرافة وجمال التعبير والذي يؤلف مع روائعه الأخرى في الزوايا خبايا - حكي قرايا وحكي سرايا - شيح بريح الناس بالناس - **حيص بيص** روعة تراثنا الشعبي.

وقد أجمع النقّاد على اعتبار هذه الكتب من أكثر الكتب التصاقاً بالناس ومن أصدقها تعبيراً عن مشاعرهم ومفاهيمهم.

الناشر